جامعة الأزهر
حولية كلية اللغة العربية
بنين بجرجا

شرح قصيدة كعب بن زهير
(بانت سعاد) في مدح الرسول - ﷺ - المسمَّى
فَتْحُ الجَوَادْ بشرحِ قصيدةِ بَانت سُعَادْ
سليمانُ بن عُمر بن مَنصور العُجَيْلي
المعروف بالجَمَل المتوفى سنة ١٢٠٤هـ

تحقيق الدكتور
سيد أحمد عبد الرحمن محمد
مدرس الأدب والنقد بكلية اللغة العربية بجرجا – جامعة الأزهر
وكلية العلوم والآداب بالقريات – جامعة الجوف

العدد الحادي والعشرون
للعام ١٤٣٨هـ / ٢٠١٧م
الجزء الثاني
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠١٧م
الترقيم الدولي ISSN 2356-9050

هَـــذَا شَـــرْحُ بـانَتْ سُـعَـــادُ

للـعــالمِ الـعَـلاَّمَـــةِ

والجَـهْبَـذِ الفَهَّـامَـةِ

واحِـــدِ زَمَـــانِـهِ

سليمان الجَمَل

غفر الله له

آمين (١)

---

(١) في ر : هذا كتاب فتح الجواد بشرح قصيدة بانت سعاد ، للعلامة صاحب الفضل المكتمل، شيخنا وأستاذنا الشيخ سليمان الجمل، روَّحَ الله روحه ، ونور ضريحه ، ونفعنا به في الدنيا والآخرة ، إنه على ما يشاء قدير ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين ، ورضي الله عن صحابته الأبرار ، وآل بيته الأطهار ، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين ، وبعد...

فإن قصيدة كعب بن زهير في مدح الرسول والاعتذار إليه المعروفة بـــ (بانت سعاد) من عيون الشعر العربي ، ومن القصائد التي سار بها الركبان ، واهتم بها العلماء ، وحاول محاكاتها الشعراء ، وكان أول ما جعل للقصيدة هذه الأهمية المناسبة التي أُنشدت فيها ، والمكان الذي قيلت فيه ، والرجل الذي خوطب بها .

ومن المعروف أن كعباً من الشعراء الفحول المجيدين ، جعله ابن سلام في شعراء الطبقة الثانية ، وقال عنه ابن عبد ربه : " كعب بن زهير في الرعيل الأول والصدر المتقدم "(١) ، وقال ابن قتيبة : " وكان كعب فحلاً مُجيدا "(٢) .

وكان زهير من أسرة اشتهرت بالشعر ، فقد كان هو شاعرا ، وأبوه زهير من أصحاب المعلقات ومن أشهر شعراء الجاهلية ، وأخوه بُجَيْر شاعرا ، وعمتاه سلمى والخنساء شاعرتين ، وابنه المُضَرَّب بن كعب شاعرا (٣).

---

(١) العقد الفريد ، أحمد بن عبد ربه الأندلسي ١٨٦/٦، ط : دار الكتب العلمية بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ .

(٢) الشعر والشعراء ، ابن قتيبة الدينوري ١٥٣/١ ط: دار الحديث ، القاهرة ١٤٢٣هـ .

(٣) ينظر : خزانة الأدب ، عبد القادر البغدادي ٢٩٣/٢ تحقيق محمد نبيل طريفي ، ط : دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٩٨م .

* إسلام كعب :

لما ظهر الإسلام وبدأ الركبان يتناقلون أخبار النبي صلى الله عليه وسلم خرج كعب وأخوه بجير إلى أَبْرَق العَزَّاف(١) ، فقال بجير لكعب : اثبت أنت في الغنم حتى آتي هذا الرجل ــ يعني محمداً صلى الله عليه وسلم ــ فأسمع خبره وأعرف ما عنده ، فأقام كعب ومضى بجير فلقي النبي صلى الله عليه وسلم وسمع منه ، وعرض عليه الرسول الإسلام فأسلم ، فأنشد كعب يهجو أخاه :

أَلاَ أَبْلِغَا عَنِّى بُجَيْراً رِسَالَةً .:. فهل لكَ فيما قُلْتَ بالخَيْفِ هَل لَّكَا

سُقِيتَ بكأْسٍ عِنْدَ آلِ مُحَمَّد .:. فأَنْهَلَكَ المَأْمُونُ منها وعَلَّكَا

فخالَفْتَ أَسْبَابَ الهُدَى وتَبعْتَهُ .:. على أيِّ شَيْءٍ ويْبَ غَيْرِكَ دَلَّكَا

فلما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بما قال كعب أهدر دمه ، فأرسل بجير إلى أخيه يعلمه بذلك ، ويخبره أنه لا مهرب له سوى أن يسلم ويقدم على النبي صلى الله عليه وسلم تائباً نادما ، فأعد كعب هذه القصيدة وجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فعفا عنه ، فأنشده كعب هذه القصيدة في المسجد ، فأعجب بها النبي صلى الله عليه وسلم وأعطاه بردته (٢).

* اهتمام العلماء بالقصيدة :

لم تلق قصيدة من القصائد عناية من العلماء والشراح مثل قصيدة بانت سعاد ، فقد تعددت شروحها وترجماتها ومعارضاتها وتخميساتها ..... الخ .

---

(١) ماء لبني أسد في الطريق من البصرة إلى المدينة المنورة (ينظر : معجم البلدان لياقوت الحموي ٦٨/١ ط: دار صادر ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٩٥م) .

(٢) ينظر : الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ١٧/ ٩١ ــ ٩٢ ، تحقيق سمير جابر ، ط : دار الفكر ، بيروت الطبعة الثانية ، والأبيات في ديوانه ص ٣٨ ط: دار صادر بيروت .

فقد شرحها الخطيب التبريزي (ت ٥٠٢ هـ) ، وأبو البركات بن الأنباري (ت ٥٧٧هـ) ، وعبد اللطيف البغدادي (ت ٦٢٩هـ)، وابن هشام الأنصاري (ت ٧٦١هـ)، والحسني الشنقيطي ، والقاضي شهاب الدين بن شمس الدين بن عمر الزَّاوِليّ (ت ٨٤٩هـ) ، وأحمد بن محمد الأنصاري اليمنى المعروف بالشروانى (ت ١٢٥٣هـ) وعبد الباقي بن على الرومي ، فرغ منها سنة ١١٥٧هـ ، وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١ هـ)، وغيرهم كثير(١) ، ثم سليمان بن عمر الجمل الذي نحن بصدد الحديث عن شرحه للقصيدة .

وعدد أبيات القصيدة في الشرح الذي نتناوله بمشيئة الله تعالى سبعة وخمسون بيتا ، وهي قصيدة لامية مضمومة ، من بحر البسيط(٢) .

ويلخص ابن هشام الأنصاري ما اشتملت عليه القصيدة فيقول : " وأول شيء اشتملت عليه هذه القصيدة التشبيب ، .... وبيان التشبيب فيها أنه ذكر محبوبته وما أصاب قلبه عند ظعنها ، ثم وصف محاسنها وذكر ثغرها وريقها ، وشبهها بخمرة ممزوجة بالماء ، واستطرد من ذلك إلى وصف الماء ، ثم منه إلى وصف الأبطح الذي أخذ منه الماء ، ثم إنه رجع إلى ذكر صفاتها فوصفها بالصد وإخلاف الوعد والتلون في الود ، ثم لام نفسه على التعلق بمواعيدها ، ثم أشار إلى بُعْد ما بينه وبينها ، وأنه لا يبلِّغُه إليها إلا ناقة من صفتها كذا وكذا ، وأطال في وصف الناقة على عادة العرب في ذلك ، ثم إنه استطرد من ذلك إلى ذكر الوشاة ، وأنهم يسعون بجانبي الناقة ويحذرونه القتل ، وأن أصدقاءه رفضوه وقطعوا حبل مودته ، وأنه أظهر لهم الجلد واستسلم للقدر ، وذكر لهم أن الموت مصير كل ابن أنثى ، ثم خرج إلى المقصود الأعظم وهو مدح

(١) ينظر : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة ، ٢ /١٣٩١ نشر : مكتبة المثنى ، بغداد .

(٢) أجزاؤه : مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن ∴ مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإلى الاعتذار إليه ، وطلب العفو منه ، والتبرؤ مما قيل عنه ، وذكْرِ شدة خوفه من سطوته ، وما حصل له من مهابته ، ثم إلى مدح أصحابه المهاجرين رضي الله عنهم أجمعين " (١) .

*** وصف المخطوطتين :**

لقد رجعت في تحقيق هذا الكتاب إلى نسختين خطيتين ، إحداهما نسخة مكتبة مكة المكرمة بالمملكة العربية السعودية ، والثانية نسخة المكتبة المركزية في الرياض في المملكة العربية السعودية أيضا .

- النسخة الأولى – وهي التي جعلتها أصلا – فهي نسخة مكتبة مكة المكرمة تحت رقم ١١٦ ، وعدد لوحاتها ١٠٢ ، في كل لوحة صفحتان ، مقاسها متوسط ، في كل صفحة ١٥ سطرا ، وخطها نسخ معتاد ، وهي نسخة واضحة لا طمس فيها ، ولم يُذكر فيها تاريخ النسخ ولا اسم الناسخ ، ورمزت لها بالرمز (م) .
- النسخة الثانية هي نسخة المكتبة المركزية بالرياض ، تحت رقم ٨٦٥/ أدب ، وتقع في ٣٩ ورقة ، في كل ورقة صفحتان ، عدد الأسطر في كل صفحة ٢٥ سطرا ، المقاس متوسط ، وخطها معتاد رديء جدا ، بها الكثير من الجمل الساقطة ، إلا أنها ساعدت كثيراً في فهم بعض الكلمات التي وردت في النسخة (م) ، واسم الناسخ عبد القادر الحَبَّال ، وتاريخ نسخها جمادى الأولى سنة ١٢٧٦هـ ، وهي نسخة مصورة عن مكتبة روضة خيري بمصر ، و رمزت لها بالرمز (ر) .

---

(١) شرح بانت سعاد لابن هشام الأنصاري ص٧ – ٨ دراسة وتحقيق الدكتور عبد الله عبد القادر الطويل ، ط : المكتبة الإسلامية ، مصر ، الطبعة الأولى ٢٠١٠م .

وجعلت النسخة الأولى هي الأصل رغم عدم ذكر اسم الناسخ ولا تاريخ النسخ لأن هذه النسخة تامة ، ولا أعني بذلك أن النسخة الأخرى ناقصة ، ولكن أعني أن بها الكثير من الجمل الساقطة التي وضع الناسخ مكانها عدة نقط هكذا (............) ، مما رجح عندي أن النسخة الأولى هي الأقدم ، فضلاً عن أن عدم ذكر اسم الناسخ يجعلني أميل إلى أن النسخة الأولى من إملاء المصنف نفسه ، وهذا ما اعتاده رحمه الله في كل مصنفاته كما سيتضح في ترجمة المصنف إن شاء الله .

* **عملي في التحقيق :**

١ ــ نسخ المخطوط اعتماداً على النسخة (م) .

٢ ــ معارضة المنسوخ بالمخطوط للتأكد من صحة النسخ وسلامته .

٣ ــ مقابلة المنسوخ عن النسخة (م) بالنسخة (ر) وإثبات الفروق بينهما .

٤ ــ تقسيم نص الكتاب إلى فقرات ليسهل الفهم .

٥ ــ ضبط النص ضبطاً متوسطا ، وضبط الكلمات الصعبة ضبطاً كاملا .

٦ ــ كتابة الأبيات المراد شرحها بخط أكبر من بقية النص ليمتاز وتسهل قراءته، خاصة وأن في القصيدة كثيراً من الكلمات الصعبة التي يعسر النطق بها ، مع ضبط كلمات الأبيات ضبطاً كاملا .

٧ ــ إدخال علامات الترقيم المعتادة على النص لتسهل قراءته وضبطه وفهمه .

٨ ــ عزو الآيات الكريمة إلى مواضعها في المصحف والإشارة إلى ذلك في الهامش .

٩ ــ تخريج الأحاديث الشريفة بالرجوع إلى كتب الحديث ، مع ذكر الحكم على الحديث بالرجوع إلى أقوال أهل العلم ، وذلك في الهامش .

١٠ــ التعريف بالأعلام والبلدان والقبائل الواردة في الكتاب تعريفاً مختصرا ، وذلك بالرجوع إلى كتب التراجم والبلدان والقبائل، ووضع ذلك في الهامش .

١١ ــ إعداد فهرس تفصيلي للكتاب .

هذا وأسأل الله تعالى التوفيق والسداد في أمر الدين والدنيا ، إنه سميع قريب مجيب ، وصل اللهم وسلم على نبيك محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين إلى يوم الدين .

كتبه

سيد أحمد عبد الرحمن أبو عليو

القريات – المملكة العربية السعودية

ترجمة المصنف

*** اسمه ونسبه وكنيته :**

هو الشيخ أبو داود (١) سليمان بن عمر بن منصور العُجَيْلي الشافعي ، المعروف بـ (الجمل)(٢) ، ولقب سليمان بـ (العجيلي) نسبة إلى المكان الذي نشأ فيه ، وهي قرية تابعة لمحافظة الغربية بمصر ، وتعرف باسم مِنْيَة عُجَيْل (٣).

أما الجمل ــ وهو اللقب الذي اشتهر به ــ فقد تداوله كل من تحدث عن الشيخ ، ولا يوجد مؤلف من مؤلفاته لم يذكر فيه ذلك اللقب ، ولم يذكر أحد من مترجميه سبب تلقيبه بهذا اللقب .

ويرجح بعض الباحثين أن يكون سبب تلقيبه بهذا اللقب هو أنه أجْمَلَ العلم ، أي جمعه ، فلقب بـ (الجمل)(٤) .

ويرى آخر أنه إنما لقب بذلك لشدة صبره على العبادة والزهد والتقشف ، فشبه بالجمل الصبور على الشدائد (٥)، ويستدل صاحب هذا الرأي بأن الجبرتي

---

(١) ينظر : فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات ، عبد الحي الكتاني١/ ٣٠٠ تحقيق إحسان عباس ، ط : دار الغرب الإسلامي بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٨٢م ، ومعجم المؤلفين ، عمر رضا كحالة ٢٧١/٤ ، الناشر : دار إحياء التراث العربي، بيروت .

(٢) ينظر : تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، عبد الرحمن الجبرتي ٨٨/٢ ، ط : دار الجيل ، بيروت لبنان ، والأعلام، خير الدين الزركلي ١٣١/٣ ط:دار العلم للملايين بيروت الطبعة الخامسة عشرة ٢٠٠٢م

(٣) ينظر : تاريخ عجائب الآثار ٢ /٨٨ .

(٤) ينظر : جهود سليمان الجمل الصرفية في حاشيته على تفسير الجلالين ، فيحاء قحطان النعيمي ، ص ١٢ ، منشورات جامعة تكريت العراق ٢٠١٢م .

(٥) ينظر : جهود سليمان الجمل الصرفية في حاشيته على تفسير الجلالين ص١٢ .

قال في ترجمته : " وفي آخر أمره تقشف في ملبسه ، ولبس كساء صوف وطيلسانا "(١) .

غير أن ذلك كله لا يعدو التكهنات التي لا يقويها دليل واضح .

* **نشأته وحياته** :

لم يذكر أحد ممن ترجم للجمل السنة التي ولد فيها ، إلا أن غالب المصادر تتفق على السنة التي توفي فيها ، بل الشهر واليوم الذي توفي فيه ، وهو الحادي عشر من شهر ذي القعدة سنة أربع ومائتين وألف للهجرة (١٢٠٤هـ) الموافق سنة تسعين وسبعمائة وألف للميلاد (١٧٩٠م)(٢) ، فظروف مولده وبداية نشأته غير معلومة .

التحق الشيخ بالأزهر في باكورة حياته فدرس الفقه والتفسير والحديث والعربية ، وبعد أن شب انصبت قراءته على الفقه الشافعي فأصبح شافعي المذهب ، وظهر عليه النبوغ فكان له درس يشهده خلق غفير (٣) .

يقول عنه الكتاني صاحب فهرس الفهارس : " هو الشيخ أبو داوود سليمان الجمل المصري الشافعي مُحَشِّي الجلالين ، ترجمه ابن عبد السلام الناصري في رحلته الكبرى فقال: " هذا الرجل آية الله الكبرى في خلقه مع كونه أمياً لا يحسب ولا يكتب ، بل ولا يطالع ، ودأبه أن يأتي بمن يطالع له حصته في سائر ما يريد تدريسه من الفنون ، فيسرد عليه ويحفظ هو جميع ذلك ، ولم يتزوج قط ، وله بالمشهد الحسيني درس كبير يحضره الجم الغفير في التفسير ،

---

(١) تاريخ عجائب الآثار ٨٨/٢ .

(٢) ينظر : هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين ٤٠٦/١ إسماعيل بن محمد الباباني البغدادي ط : دار إحياء التراث العربي بيروت – لبنان ، ومعجم المؤلفين ٢٧١/٤ .

(٣) ينظر : عجائب الآثار ٨٨/٢ .

وكان من عادته أن يأتي أخ له كل يوم مع طالب من تلامذته إلى بيته فيسـردون على الشيخ التفاسير فيأمرهم بالكتابة " (١)

وقال عنه الجبرتي : " ودرس بالأشرفيه والمشهد الحسيني فـي الفقـه والحديث والتفسير ، وكثرت عليه الطلبة وضبطَتْ من إملائه وتقريراته ، وقـرأ المواهب والشمائل وصحيح البخاري وتفسير الجلالين بالمشـهد بـين المغـرب والعشاء وحضره أكبر الطلبة(٢)"

* **أخلاقه** :

اشتهر الشيخ الجمل بالصلاح وعفة النفس والزهد ، وكان ويتردد كثيراً لزيارات المشايخ والأولياء (٣) ، حتى قال عنه الناصري فيما نقله الكتاني صاحب الفهرس : " إن لم يكن المترجَم ولياً فليس لله بمصر من ولي "(٤) .

* **مؤلفاته** :(٥)

ـ الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين بالدقائق الخفية .

ـ فتوحات الوهاب بتوضيح شرح منهج الطلاب للرملي في فروع الفقه الحنفي.

ـ المواهب المحمدية بشرح الشمائل الترمذية .

ـ الفتوحات الأحمدية بالمنح المحمدية على متن الهمزية للبوصيري .

ـ المنح الإلهيات بشرح دلائل الخيرات .

(١) فهرس الفهارس للكتاني ٣٠٠/١ .
(٢) عجائب الآثار ٨٨/٢ .
(٣) ينظر : عجائب الآثار ٨٨/٢ .
(٤) فهرس الفهارس ٣٠٠/١ .
(٥) ينظر : هدية العارفين ٤٠٦/١ ، ومعجم المؤلفين ٢٧١/٤ ، ومعجم المطبوعات يوسف سركيس ٢٩٥/١ ط : مطبعة سركيس ، مصر ١٩٢٨م ، والأعلام ١٣١/٣.

ـ فتح الجواد بشرح قصيدة بانت سعاد .

ـ تقريرات على فتح الجواد بشرح منظومة ابن العماد في المعفوات.

* **شيوخه** :

ـ الشيخ نجم الدين محمد بن سالم الحفني الأزهري ، شيخ الجامع الأزهر (ت١١٨١هـ)(١)

ـ الشيخ عطية بن عطية الأَجْهُوري البرهاني الشافعي الأزهري (ت ١١٩٤هـ)(٢)

ـ الشيخ محمد الدَّفْري الشافعي (ت هـ ١١١٦)(٣)

ـ الشيخ نور الدين أبو الحسن محمد بن عبد الهادي السندي (ت ١١٣٦هـ)(٤)

ـ الشيخ أبو العباس أحمد بن مصطفى الصباغ المالكي (ت ١١٦٢هـ)(٥)

ـ الشيخ حسن بن علي بن أحمد المَدَابِغِيّ الشافعي (١١٧٠هـ)(٦)

ـ الشيخ شهاب الدين أحمد بن عبد الفتاح المُجِيرِيّ الملَّوي (١١٨١هـ)(٧)

---

(١) الأعلام ٦/١٣٥ .
(٢) فهرس الفهارس ٢/٧٧٨
(٣) عجائب الآثار ٢/٤٤ .
(٤) عجائب الآثار ١ /٢١٤ .
(٥) فهرس الفهارس ١/٧٠٢ .
(٦) فهرس الفهارس ١/٧٠٢
(٧) الأعلام ١/٢٢٣.

* **تلاميذه** :

ـ أخوه الشيخ عبد الرحمن الجمل (ت ١٢٢٩هـ) (١).

ـ الشيخ إبراهيم بن مصطفى أبو الصلاح الرحَيْبَاني الحراني الدمشقي الشافعي (ت ١٢٣٤هـ) (٢)

ـ الشيخ علي الحصاوي الشافعي الأزهري (ت ١٢٣١ هـ) (٣) .

* **وفاته** :

توفي رحمه الله في حادي عشر ذي القعدة سنة ١٢٠٤هـ (٤).

---

(١) حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر ، عبد الرازق البيطار ، ١/٣٧٦ تحقيق محمد بهجة البيطار ، ط : دار صادر بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٩٣م .

(٢) حلية البشر ١ /١٨ .

(٣) حلية البشر ١ /٤٨٣ .

(٤) عجائب الآثار ١/٢١٤ والأعلام ٣/١٣١.

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

الحمد لله الذي خلق السعداء من العباد ، وجعل منهم الأشقياء كما أراد ، والصلاة والسلام على سيد السادات ومنبع السعادات ، وعلى من سعد بقربه وصحبته وخدمته ومتابعته من أمته أصحاب الكمالات ، وأرباب الهمم العاليات ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة تجنب قائلَها موارد الأكدار ، [وتحمي منتهِلَها(١)] عن مواقع السوء في الدارين فتحقن الدماء من السيف وتصون الوجوه من النار .

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي جذب بمغناطيس [محبة القلوب](٢) فألفها بعد النِّفار ، عُرف بالعفو والصفح [لدى القدرة فأمنه](٣) الخائف وأسرع إليه وطار ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين تأيدوا (٤) بالإخلاص فسموا إلى رتب الكمال ، وتنوعت في طلب رضاه [مقاصدهم](٥) فمن مادح بلسان وزائد بسيف وجائد بمال ، صلاة تفوق ببهجتها جميع الممادح ، ويُتَرقب لها أسنى الجوائز، فيظفر قائلها بأكرم المنائح .

أما بعد ....

فيقول العبد الفقير لعفو ربه سليمان الجمل خادم الفقراء : لما كانت القصيدة الشهيرة ببانت سعاد من أبدع (٦) ما مدح به رسول الله صلى الله عليه

---

(١) ساقطة من ر

(٢) ساقطة من ر

(٣) ساقطة من ر

(٤) هكذا في النسختين .

(٥) ساقطة من ر

(٦) في ر : أبلغ .

وسلم ، وكان لها شأن عظيم أحببت التبرك بها ، وبمن نسبت إليه ، وحاولت وضع شرح عليها يليق بضعفي وقصوري ، مستمداً له من شروح الأئمة الأخيار ، مع بعض زوائد يفتح بها الكريم الغفار ، وسميته فتح الجواد بشرح قصيدة بانت سعاد ، والله المسئول في تيسير إكماله ، وأن يجعله خالصاً نافعاً لمن اعتنى به ، فأقول وبالله التوفيق :

سبب هذه القصيدة أن أبا المظفر كعب بن زهير بن أبي سلمى ، بضم السين ، على وزن(١) : حبلى ، واسم أبي سلمى ربيعة بن رياح ، بكسر الراء وفتح الياء آخر الحروف ، أحد بني مزينة(٢) ، كان من شعراء العرب ، وكذلك أخوه بجير(٣) ، وكان كعب أشعر من بجير ، وكان أبوهما زهير أشعر منهما ، ولكعب ابنان شاعران جليلان ، أحدهما عقبة ، والآخر العوام (٤)، وما كان لهما نظير بين الخواص والعوام ، وكان كعب ممن هجا النبي صلى الله عليه وسلم وتكلم فيه ، فلما فتح صلى الله عليه وسلم مكة خرج ناس من أهلها هاربين منه صلى الله عليه وسلم ، ومن جملتهم كعب وأخوه بجير ، خرجا هاربين من مكة حتى أتيا أبرق العَزَّاف ، بفتح المهملة والزاي المشددة آخره فاء ، وهو ماء

(١) في ر : بوزن حبلى .
(٢) قبيلة مضرية مساكنها الحجاز ونجد (ينظر : جمهرة أنساب العرب لابن حزم الظاهري ص ٢٠٢ ط : دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨٣م)
(٣) هو بجير بن زهير بن أبي سلمى المزني ، شاعر مخضرم ، أسلم وشهد بعض الغزوات ، ومات بعد سنة ٢٥ هـ (ينظر : الوافي بالوفيات للصفدي ١٠ / ٥٠تحقيق احمد الأرنؤوط، ط : دار إحياء التراث ، بيروت ٢٠٠٠م)
(٤) عقبة بن كعب ، لقبه المضرَّب ، لأنه شبب بامرأة فضربه أخوها بالسيف عدة ضربات فلم يمت فلقب بالمضرب (ينظر : الوافي بالوفيات ٢٤/٢٥٩) وأما العوام فالصواب أنه حفيده وليس ابنه ، وهو العوام بن عقبة بن كعب بن زهير ، شاعر مجيد اشتهر في العصر الأموي ، زار مصر وتوفي بها (ينظر : معجم الشعراء للمرزباني ص٣٠١ ط : دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٨٢م)

لبني أسد (١) ، بين المدينة والربذة (٢)، على عشرين ميلاً من المدينة ، وسمي بذلك لأنه كان يسمع به عزيف الجن ، أي صوتهم ، وكان ذلك فيما بين رجوعه صلى الله عليه وسلم من الطائف وغزوة تبوك ، فلما وصلا إلى ذلك الموضع قال بجير لكعب : اثبت في غنمنا هنا حتى آتي هذا الرجل فأسمع كلامه وأعرف ما عنده هل هو مما يستملح ويلوح صدقه فأتبعه ، أم لا فأتركه ، فأقام كعب هناك ومضى بجير فأتى النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة الشريفة ، فسمع كلامه وآمن به ، وذلك أن زهيراً كان يجالس أهل الكتاب ، فسمع منهم أنه قد آن مبعثه عليه الصلاة والسلام ، ورأى زهير في منامه أنه قد مد[سبب](٣) ــ أي حبل ــ من السماء وأنه مد يده ليتناوله ففاته ، فأول الحبل بالنبي صلى الله عليه وسلم الذي يبعث في آخر الزمان ، وأول فوته بأنه لا يدركه ، وأخبر بنيه بذلك ، وأوصاهم إن أدركوه أن يسلموا ، ومات هو قبل مبعثه صلى الله عليه وسلم .

ثم إن بجيراً لما أسلم أقام عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فبلغ خبر إسلامه لأخيه كعب ، فشق عليه إسلام بجير ، وأرسل له أبياتاً يلوم عليه فيها ، فرأى صلى الله عليه وسلم الأبيات فأهدر دمه وقال : من لقي كعباً فليقتله .

فكتب بذلك بجير إلى أخيه كعب ، وأرسل يقول له : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل رجالاً بمكة ممن كان يهجوه ، وأنه أهدر دمك ، فإن كانت لك في نفسك حاجة فطر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ أي أقبل عليه ــ

---

(١) قبيلة مضرية عدنانية ، كانت مساكنهم في تهامة وغرب الجزيرة وعند الرس بجوار جبلي سلمى وأجا (ينظر : أنساب الأشراف للبلاذري ١/١٩٥ تحقيق سهيل زكار ورياض الزركلي ، ط : دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩٦م)

(٢) الرَّبَذَةُ : قرية من قرى المدينة قريبة من ذات عرق على طريق الحجاز (ينظر : معجم البلدان ٣/٢٤)

(٣) ساقط من ر .

مسرعاً[١] ، فإنه لا يرد أحداً جاءه تائبا ، وإن أنت لم تفعل فانج إلى نجاتك ، فلما بلغه هذا الخبر ضاقت به الأرض وأشفق على نفسه ، وأرجف به من كان حاضراً عنده ، فأتى إلى قبيلة مزينة لتجيره من النبي صلى الله عليه وسلم فأبت ذلك عليه ، فلما لم يجد مخلصاً توجه إلى المدينة فنزل على رجل من جُهَيْنَة[٢] كان بينه وبينه معرفة وصحبة ، وقيل إن ذلك الرجل هو علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، فغدا به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : هذا رسول الله [صلى الله عليه وسلم][٣] فقم إليه واستأمنه ، فقام حتى جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضع يده في يده ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعرفه ، فقال : يا رسول الله ، إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمنك تائباً مسلما ، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به ؟؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم ، فقال : أنا يا رسول الله كعب بن زهير .

قال ابن إسحاق : فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة أنه وثب عليه رجل من الأنصار فقال : يا رسول الله دعني وعدو الله أضرب عنقه ، فقال صلى الله عليه وسلم : دعه عنك فقد جاءنا تائباً لا نازعا [٤]، قال : فغضب كعب على الأنصار لما قال صاحبهم في حقه ما قال ، فلم يتعرض لمدحهم في هذه القصيدة ، بخلاف المهاجرين فمدحهم فيها لأنه لم يتكلم فيه أحد منهم إلا بخير ، ولما تمم هذه القصيدة غضب عليه الأنصار حيث لم يمدحهم فيها ، أشار عليه صلى الله عليه وسلم بمدحهم فاسترضاهم ومدحهم بقصيدة أخرى مطلعها :

---

(١) في م : سرعا .
(٢) قبيلة من قضاعة ، من القحطانية ، كانت مساكنهم شمال فدك في الطريق إلى فلسطين (ينظر : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب للقلقشندي تحقيق إبراهيم الإبياري ، ط : دار الكتاب اللبنانيين ، الطبعة الثانية ١٩٨٠ م)
(٣) ساقطة في ر.
(٤) في ر : تائباً نازعا .

مَنْ سَرَّهُ كَرَمُ الْحَيَاةِ فَلَا يَزَلْ ∴ فِي مِقْنَبٍ[1] مِنْ صَالِحِي الْأَنْصَارِ

إلى آخرها .

وكان كعب وهو عند الغنم قبل قدومه المدينة أنشأ من هذه القصيدة أبياتاً ، فقال :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول ∴ متيَّمٌ إثْرَها لم يفد مَكْبُولُ
أُنبئتُ أن رَسُولَ اللهِ أَوْعَدنِي ∴ والعفو عند رسولِ الله مأمول
مهلاً هداكَ الذي أعطاكَ نافلةَ ال ∴ قرآنِ فيها مواعِيظٌ وتفصِيلُ
لا تأخذني بأقوال الوشاة فلم ∴ أذنب ولو كثرت في الأقاويل
إن الرّسولَ لنور يستضاءُ بهِ ∴ مهندٌ من سيوفِ الله مسلولُ
في عُصْبةٍ من قُرَيشٍ قال قائلُهم ∴ ببَطْنِ مَكَّةَ لما أَسْلَموا زُولُوا
يَمْشُون مَشْيَ الجِمالِ الزُّهْرِ يَعْصِمُهم ∴ ضربٌ إذا عرّد السودُ التنابيل

ولما وصل إلى حضرته صلى الله عليه وسلم وقبله وعفى عنه أنشأ تلك القصيدة على وجه آخر مبلغاً لها إلى سبع وخمسين بيتا .

وفي رواية أبي بكر بن الأنباري أنه لما وصل إلى قوله :

إِنَّ الرَّسُولَ لَنُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ ∴ مُهَنَّدٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ مَسْلُولُ

ألقى عليه صلى الله عليه وسلم بردته التي كانت عليه ، وأن معاوية بذل له فيها عشرة آلاف من الدراهم ، فقال : ما كنت لأوثر بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدا ، فلما مات كعب بعث معاوية إلى ورثته بعشرين ألفاً من الدراهم فأخذها منهم ، قال : وهي البردة التي عند السلاطين إلى اليوم .

---

(١) المِقْنَبُ: بِالْكَسْرِ، جماعةُ الْخَيْلِ والفُرْسانِ (ينظر : لسان العرب لابن منظور ، مادة : قنب ١/ ٦٩٠ ط : دار صادر ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٤١٥هـ)

وعند ابن قانع [١]عن ابن المسيب[٢] أنها التي يلبسها الخلفاء في الأعياد .

قال الشامي[٣] : ولا وجود لها الآن ، والظاهر أنها فقدت في وقعة التتار .

ونقل عن محمد بن هلال[٤] أنه قال : رأيت على هشام بن عبد الملك[٥] برد النبي صلى الله عليه وسلم من حبرة له حاشيتان ، رواه الدمياطي[٦] .

وهشام هذا من سلاطين بني أمية ، ففيه تعيين البردة التي دفعت لكعب ، لأنها آلت للملوك .

وفي المصباح [٧]: الحبرة ــ بوزن عنبة ــ ثوب يماني من قطن أو كتان مخطط .

---

(١) هو عبد الباقي بن قانع بن مرزوق الأموي البغدادي ، من رجال الحديث ، ولد سنة ٢٦٦هـ وتوفي سنة ٣٥١هـ (ينظر: لسان الميزان لابن حجر العسقلاني ٣/٣٨٣ تحقيق دائرة المعارف بالهند، ط : مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت الطبعة الثانية ١٩٧١م)
(٢) لم أعرف من هو .
(٣) هو محمد بن يوسف بن علي بن يوسف الشامي ، محدث عالم بالتاريخ ، من الشافعية ، ولد في دمشق ومات بالقاهرة سنة ٩٤٢هـ (ينظر : فهرس الفهارس ٢/٣٩٢)
(٤) هو محمد بن هلال بن المعلى ، ولد أبوه في حصار عثمان ، وتوفي هو في أواخر ولاية هشام (ينظر : الطبقات الكبرى ــ الجزء المتمم ــ ١/٤٤٧ لمحمد بن سعد تحقيق زياد المنصور ، الناشر : مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة ١٤٠٨هـ)
(٥) هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم ، الخليفة الأموي العاشر ، ولد سنة ٧١هـ وتولى الخلافة سنة ١٠٥ هـ ، وتوفي سنة ١٢٥هـ (ينظر : تاريخ الطبري ٨/٢٨٣ الناشر دار التراث ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٣٨٧هـ)
(٦) بل ذكره ابن سعد في طبقاته ١/٤٤٧ حيث قال : أخبرنا عفان بن مسلم وهشام أبو الوليد الطيالسي وعمرو بن عاصم قالوا : أخبرنا همام بن يحيى أخبرنا قتادة قال : قلت لأنس بن مالك : أي اللباس كان أحب وأعجب إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم ؟ قال : الحبرة أخبرنا معن بن عيسى أخبرنا محمد بن هلال قال رأيت على هشام يعني ابن عبد الملك برد النبي صلى الله عليه و سلم من حبرة له حاشيتان .... .
(٧) المصباح المنير لأحمد بن علي الفيومي ١/١١٧ الناشر : المكتبة العلمية ، بيروت .

ولذا قال أهل العلم : المديحة المسماة بالبردة هـي بانـت سـعاد ، لأن المصطفى صلى الله عليه وسلم أعطى كعباً بردته الشريفة .

وأما مدحة البوصيري(١) فاسمها برءة ، لأنه لما نظمها رأى النبي صـلى الله عليه وسلم في المنام ، وكان إذ ذاك [مريضاً](٢) بالفالج ، فبرئ منه .

وقد ذكر الترمذي(٣) في طبقات النحاة أن بنداراً (٤) الأصفهاني كان يحفظ تسعمائة قصيدة أول كل قصيدة منها بانت سعاد .

وذكر السيوطي(٥) منها عشرة ، منها قول زهير(٦) والد كعب :

بانت سعاد وأمسى حبلها انقطعا ∴ وليت وصلاً لنا من حبلها رجعا

---

(١) محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله الصنهاجي البوصيري المصري ، شاعر مجيد أسـهر شعره البردة التي مدح بها النبي صلى الله عليه وسلم ، مات بالإسكندرية سنة ٦٩٦هـ (ينظر : فوات الوفيات لمحمد بن شاكر الكتبي ٢٠٥/٢ تحقيق إحسا عباس ، ط: دار صادر ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٧٣م)

(٢) ساقطة من ر .

(٣) لم أقف للترمذي هذا على ذكر في الخبر المذكور، وإنما الخبر في طبقات النحاة كما يأتي : قال ابن الأنباري عن أبيه القاسم: كان بندار يحفظ .... الخ (ينظر : بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ٤٧٦/١ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط : المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت .

(٤) هو بندار بن عبد الحميد الكرخي الأصفهاني ، من حفاظ الشعر وعلمائه ، عاصر المبرد والخليفة المتوكل ، وعاش حتى بلغ التسعين (ينظر : معجم الأدباء ٢٩٨/١ تحقيق إحسان عباس ، ط : دار الغرب الإسلامي بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩٣ م)

(٥) عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخضيري السيوطي، جلال الدين ، إمام حافظ مؤرخ أديب ، صاحب المصنفات العظيمة ، ولد بالقاهرة سنة ٨٤٩هـ ومات بها سنة ٩١١ هـ (ينظر : الأعلام ٣٠١/٣) .

(٦) زهير بن أبي سلمى المزني ، شاعر جاهلي من الطبقة الأولى ، من أصـحاب المعلقـات ، مات سنة ١٣ ق هـ (ينظر : الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ٢٨٨/١٠)

* مقدمة في بيان ترتيب هذه القصيدة وأبياتها التي نسجت عليها:

اعلم أنه كان من عادة شعر العرب أنهم إذا أتوا بقصيدة مدح افتتحوها بالتشبيب المعبر عنه بالغزل ، وهو عند المحققين من أهل الأدب يشتمل على أربعة أنواع :

النوع الأول : ذكر ما في المحب من الصفات التي تنشأ عن المحبة وتدل عليها ، كالشغف والنحول والذبول والحزن والأرق ونحو ذلك .

النوع الثاني : ذكر ما في المحبوب من الصفات التي هي أسباب المحبة ، سواء كانت حسية كحمرة الخد ورشاقة القد وما في معناهما ، أو معنوية كالجلالة والخفر(١) وما أشبه ذلك ، ويسمى هذا النوع بخصوصه من التشبيب تشبيباً أيضا .

وفي المصباح: وخفر الإنسان خفرا : من باب تعب ، فهو خفير ، والاسم: الخفارة ، بالفتح ، وهو الحياء والوقار(٢) .

النوع الثالث : ذكر ما يتعلق بالمحب والمحبوب جميعا ، من هجر وصد ووصل وسلو واعتذار ووفاء وإخلاف ونحو ذلك .

النوع الرابع : ذكر ما يتعلق بغيرهما بسببهما من الوشاة والرقباء ونحو ذلك .

والناظم ــ رضي الله تعالى عنه ــ قد أتى في قصيدته قبل التخلص إلى المدح بالأنواع الأربعة ؛ وذلك أن القصيدة اشتملت على سبعة وخمسين بيتاً .

فابتدأ في النوع الأول من التشبيب بذكر حال نفسه وما اعتراه بسبب الفراق في البيت الأول بقوله :

---

(١) الخَفَرُ : الحياء (ينظر : تاج العروس للزبيدي ٢٠٤/١١ تحقيق مجموعة محققين ، الناشر : دار الهداية ، مصر .

(٢) ينظر : المصباح المنير ١٧٥/١ .

بانت سعاد............ .

ثم أخذ في ذكر النوع الثاني ، وهو ما يتعلق بمحبوبته فشبهها بالظبي الموصوف بحسن الصفات في البيت الثاني بقوله :

وما سُعَادُ، غَدَاةَ البَيْنِ، إذ رَحلوا ∴ **إلاّ أغنُّ**...... **البيت** .

ثم ذكر ثغرها وريقها وشبهه بالراح في البيت الثالث بقوله :

تجلو(١) **عوارِضَ ذي ظَلْمٍ** ∴ .... إلى آخره .

ثم ذكر مزج الراح بالماء ، واستطرد فوصف ذلك الماء ثم الأبطح الذي أخذ منه الماء في البيت الرابع بقوله :

شُجّتْ بِذِي شَبَمٍ من مَاء مَحْنِيةٍ ∴ .... إلى آخره .

ثم أكمل وصف ذلك الأبطح في البيت الخامس بقوله :

تَنْفي الرّياحُ القَذَى عنه، وأفرطَه ∴ .... إلى آخره .

ثم أخذ في ذكر النوع الثالث من التشبيب وهو ما يتعلق بينهما جميعا ، فذكر إخلافها للوعد وعدم قبولها النصح في البيت السادس بقوله :

أكرم بها خلة لو أنه صدقت ∴ **موعودها**.............. **البيت**

ثم أكمل ذلك في البيت السابع بقوله :

لكنها خلة قد سيط من دمها ∴ ....

ثم وصفها بالتلون في الود في البيت الثامن بقوله :

فما تدوم على حال تكون بها ∴ .... إلى آخره

---

(١) في م : تجلوا ، بألف بعد الواو ، ومن الملاحظ أن الناسخ قد وقع في هذا الخطأ مرات كثيرة ، حيث تراه يضع ألفاً بعد واوات ليست للجمع .

ثم وصفها بعدم الوفاء بالعهد في البيت التاسع بقوله :

ولا تَمَسَّكُ بالعهد الذي زعمت ∴ .... إلى آخره.

ثم أكد ذلك فأخبر أن ما تعده أماني لا حقيقة لها في البيت العاشر بقوله :

فلا يغرنك ما منت وما وعدت ∴ .... إلى آخره .

ثم ضرب لها مواعيد عرقوب مثلاً في البيت الحادي عشر بقوله :

كانت مواعيد عرقوب لها مثلا ∴ .... إلى آخره .

ثم ذكر أنه مع ذلك لم ييأس من ودها في البيت الثاني عشر بقوله :

أرجو(١) وآمل أن تدنو(٢) مودتها ∴ .... إلى آخره .

ثم ذكر بُعْدَ ما بينه وبينها من المسافة في البيت الثالث عشر بقوله :

أمست سعاد بأرض لا يبلغها ∴ .... إلى آخره .

ثم ذكر أنه لا يبلغه إليها إلا ناقة من صفتها كذا وكذا ، وأطال في وصفها على عادة العرب في ذلك من أول البيت الرابع عشر ، وهو قوله :

وَلَنْ يُبَلّغَها إلاّ عُذافِرَةٌ، ∴ .... إلى آخر البيت الثالث والثلاثين ، فاستوفى في وصفها عشرين بيتا .

ثم أخذ في ذكر النوع الرابع ، وهو ما يتعلق بغيرهما بسببهما ، فذكر الوشاة وحاله معهم في البيت الرابع والثلاثين وهو قوله :

تسعى الوشاة حواليها وقولهم ∴ .... إلى آخره .

---

(١) في م : أرجوا .

(٢) في م : تدنوا .

واستطرد في ذلك إلى آخر البيت السابع والثلاثين ، وهو قوله :

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته ∴ .... إلى آخره ، وهذا آخر الغزل .

ثم تخلص إلى المقصود من القصيدة وهو مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم في البيت الثامن والثلاثين ، وهو قوله :

أنبئت أن رسول الله أوعدني ∴ .... البيت .

واستطرد في ذلك إلى آخر البيت الموفى خمسين ، وهو قوله :

إن الرسول لسيف يستضاء به ∴ ....إلى آخره .

فاستوفى في المقصود وهو مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم ثلاثة عشر بيتا ، ثم انتقل إلى ما هو بمنزلة التتمة والخاتمة ، وهو مدح المهاجرين[بقوله في البيت الحادي والخمسين :

في فتية من قريش ∴ .... البيت .

واستطرد في ذلك إلى آخر البيت السابع والخمسين ، وهو قوله :

لا يقع الطعن إلا في نحورهم ∴ .... البيت ، وهو آخر القصيدة .

فنخلص [١] أن هذه القصيدة ترجع إلى ثلاثة أقسام ، التشبيب ، ثم مدح النبي ، ثم مدح المهاجرين ، وأن تلك الثلاثة ترجع إلى ستة من حيث أن القسم الأول منها ــ وهو التشبيب ــ يرجع إلى أربعة أقسام .

وأنه ذكر في القسم الأول وهو الكلام على أوصاف المحب بيتاً واحدا .

وذكر في القسم الثاني وهو أوصاف المحبوب أربعة .

وذكر في القسم الثالث وهو ما يتعلق بهما معا ثمانية وعشرين بيتا][٢].

---

(١) في ر : فتخلص .

(٢) الجمل كلها الواقعة بين المعقوفتين ساقطة من ر

وذكر في القسم الرابع من التشبيب وهو ما يتعلق بالرقباء أربعة .

وذكر في القسم الخامس الذي هو المقصود الأصلي من القصيدة وهو مدح النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة عشر بيتا .

وذكر في القسم السادس وهو مدح المهاجرين سبعة أبيات ، فتأمل .

وهذا أوان الشروع في المقصود ، بعون الملك المعبود ، فأقول وبالله التوفيق : قال الإمام الجليل صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ناظم هذه القصيدة كعب بن زهير رضي الله تعالى عنه ونفعنا ببركاته ، آمين :

بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتْبُولُ ∴ مُتَيَّمٌ إثْرها لَمْ يُفْدَ مَكْبُولُ

(بان) فعل ماض ، والتاء علامة التأنيث ، يقال : بان يبين – من باب باع – بيناً وبينونة أيضا ، وهو الفراق ، ويقال للوصل أيضا ، فهو من الأضداد ، والمراد هنا الأول ، أي فارقت فراقاً بعيدا(١) .

و (سعاد) فاعل بانت ، وهو علم المؤنث يحتمل أنه أراد به امرأة غير معينة ، على عادة غالب الشعراء أنهم يفتتحون الغزل بذكر محبوب غير معين ، بل وإن لم يكن حب بالكلية ، يقصدون بذلك تمليح الكلام وتحسينه ؛ لأن طباعهم تميل للعشق والتغزل فيه

ويحتمل أنه أراد امرأة معينة يهواها حقيقة ، وهو ما جرى عليه بعض المحققين ، فقد قال في شرح المواهب : " قال الروياني في البحر : " هي امرأته وبنت عمه ، ذكرها في هذه القصيدة لطول غيبته عنها لهروبه من النبي صلى الله عليه وسلم ، وبه جزم البرهان ، فقول الجمال بن هشام : علم مرتجل يريد به امرأة يهواها الشاعر حقيقة أو ادعاء تقصير ، ولذلك قال الشامي : حقيقة لا

---

(١) في م : بعيد .

ادعاء "[١]، لكن احتمال كونها زوجته يبعده السياق الآتي ؛ حيث وصفها بإخلاف الوعد وبالتلون وعدم السكة[٢] و بأنها[٣] أمست بأرض بعيدة جدا ، إلى غير ذلك، فالذي يتيقن أنها امرأة يهواها ادعاء ، وغرض الكلام فيها ، أو أنها امرأة يهواها حقيقة ، وأنها غير زوجته ، فليتأمل .

والفاء في :(فقلبي) ، لمحض السببية ، لا لمجرد العطف .

والمراد بالقلب عنا : الفؤاد ، وسمي قلباً لتقلبه في هوى نحو سعاد .

و (اليوم) ظرف لما بعده ، وقدم للحصر .

و(مَتْبُولُ) بتقديم الفوقية على الموحدة ، من تَبَله الحب يتبله ، من باب قتل : أسقمه وأضناه وأضعفه ، وفي نسخة بتقديم الموحدة من البتل ، وهو القطع ، ومنه قوله تعالى :" وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا " [٤] أي انقطع إليه كمالاً وتكميلا ، ومنه البتول للزهراء ؛ لانقطاعها عن الدنيا بأنواعها .

و (متيم) بتشديد التحتية المفتوحة خبر بعد خبر ، تيمه الحب وتأتمه بمعنى استعبده وأذله ، وقيل في معناه المجعول عبدا ؛ إذ المحب في جناب الحبيب كالعبد اللبيب في مقام الإطاعة في كل ساعة ، أو مذلل محقر مأمور منقاد؛ إذ العبودية تستلزم ذلك في المعتاد .

و (الإثر) في كلامه بكسر الهمزة وسكون المثلثة : محل المشي ، وموضع القدم من الأرض ، ويقال فيه : أثر بفتحتين ، وهو ظرف لمتيم ، أو حال

---

(١) شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية ٥٨/٤ ط : دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ١٩٩٦م .

(٢) هكذا في م ، وفي ر : المسكة ، ولم أفهم المعني في أي منهما .

(٣) في م : وبأنهما .

(٤) سورة المزمل الآية : ٨ .

من ضميره ، فيتعلق بكون محذوف ، ولا يحسن تعليقه بمتبول ، ولا كونه حالاً من ضميره للبعد اللفظي والمعنوي .

وقوله (لم يفد) أي لم يقع له فداء من أسره الذي وقع فيه ، إما بمعنى أنه لم يجد من يفديه ويخلصه من الأسر ، وإما بمعنى أنه لم يختر الفداء ، بل كان أسر المحبة أحب إليه .

ويروى : لم يشف ، بدل يفد ، بمعنى أنه بعد تبل قلبه ومرضه وسقمه لم يحصل له شفاء ، ويكون ذلك عائداً على قوله متبول لا على قوله متيم .

و (المكبول) بفتح الميم وإسكان الكاف يحتمل معنيين:

أحدهما أنه يريد به المقيد ، يقال : كبل الأسير ــ بالتخفيف ــ من باب ضرب ، وكبله ــ بالتشديد ــ إذا وضع في رجله الكبل بفتح الكاف وسكون الباء، وقد تكسر الكاف ، وهو القيد .

الثاني أن يريد به المسجون ، يقال : كبله ــ بالتخفيف ــ إذا حبسه في سجن أو غيره ، والمعنى أن قلبه بسبب فراق محبوبته سار في غاية الضنى والسقم والأسر والذل والقيد والسجن ، لا يجد له هرباً من الأسر ، ولا فكاكاً من الرق .

وذلك أنه لما كان مبنى ابتداء هذه القصيدة على الغزل والتشبيب جرياً على عادة أكثر الشعراء في ابتداء قصائد المدح بمثل ذلك على ما تقدم ذكره في مقدمة هذا الشرح وكان من جملة أنواع التشبيب ذكر ما في المحب من صفات المحبة والشغف ونحوه على ما تقدم بيانه ــ صدّر كلامه بذكر الفراق المقتضي لذلك ليرتب عليه ما يأتي من لوازم المحبة وعوارضها ، ولا شك أن فراق الأحبة من أشد الآلام وأعظم الأحزان .

فإن قيل : كيف ساغ لكعب أن يتغزل بامرأة في قصيدة أنشدها بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم ؟ فالجواب أنه جرى في ذلك على عادة العرب في أشعارهم ، وسماع النبي صلى الله عليه وسلم ذلك وإقراره عليه دليل الجواز ؛ إذ يحتمل أنه قصد امرأة معينة كانت حليلته وبانت عنه فتغزل بها .

وقد نص العلماء رضي الله عنهم على أنه إنما يمتنع التغزل إذا كان بشخص معين أو امرأة أجنبية ، أما إذا كان بحليلة أو بغير معين فلا منع منه كما تقدم ، على أن محبتهم كانت غير مفضية إلى الخنا والقبيح .

ويحتمل أنه لم يقصد بذلك امرأة معينة ، بل جرى فيه على أكثر عادة الشعراء في ذلك ، ولا منع فيه كما تقدم .

ولذلك هلك كثير من المتيمين في عشق من أحبوه ، صبراً عن الوصال ، وتقديماً للمروءة على الشهوة ، وربما اجتمع الواحد منهم بمن يحبه في الخلوة ثم لا يقع بينهما [إلا](١) أمر عفة من الرجال وصيانة من النساء ، وقيل لرجل من بني عُذْرَة(٢) : ما بال الرجل منكم يموت في هوى امرأة ؟ فقال : لأن في نسائنا جمالاً وفي رجالنا عفة .

وما سُعَادُ غَدَاةَ البَيْنِ إذ رَحلوا ∴ إلاّ أغنُّ غضِيضُ الطَّرْفِ مَكحولُ

(وما) الواو عاطفة عطف إسمية على الفعلية السابقة ، و ما نافية .

و (سعاد) مبتدأٌ ، لا اسمٌ لِمَا ، لانتقاض النفي بإلا ، والأصل : وما هي ، فأقام الظاهر مقام المضمر استلذاذاً بذكرها .

---

(١) زيادة يقتضيها السياق ، وإلا انعكس المعنى .

(٢) بطن من قبيلة قضاعة ، وهم بنو عذرة بن سعد بن هُذَيم (ينظر : قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان للقلقشندي ص ٤٩ تحقيق إبراهيم الإبياري ، الناشر : دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٢م)

و (غداة) ظرف زمان ، والعامل فيه معنى التشبيه في قوله : إلا أغن ، أي شبيهة بالأغن في غداة .

(البين) أي الفراق ، والبين مضاف إليه ، وهو مصدر بأن ، وأن ظرف لما مضى من الزمان بدل من الغداة .

(ورحلوا) فعل وفاعل في موضع خفض بإضافة إذ .

و (إلا) إيجاب للنفي .

و (أغن) صفة لمحذوف ، وهو خبر سعاد ، أي إلا ظبي أغن ، والمعنى على التشبيه : أي إلا كظبي أغن ، والأغن : الذي في صوته غنة ، وهي صوت لذيذ يخرج من أقصى الحلقوم ، ولا يجوز أن يكون وصفاً لسعاد ، إذ كان يقول : إلا غناء ، وأغن يجمع على غُن ، كأحمر وحمر .

و (غضيض) صفة لأغن ، أو خبر ثان ، والظرف بسكون الراء مضاف إليه .

و (مكحول) صفة لأغن ، أو خبر آخر ، والمعنى : وما سعاد غداة البين إذ رحلوا وهي معهم إلا ظبي أغن الصوت غضيض الطرف مكحول العين .

و (سعاد) هي محبوبته التي أشار إليها في البيت الأول .

و (الغداة) اسم لمقابل العشي ، قال تعالى :" يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ " [(١)]، وقد يراد بها مطلق الزمان كما تقدم في قوله : فقلبي اليوم متبول ... ، وكلامه في البيت يحتملهما .

و (البين) الفراق ، وأتى في قوله : رحلوا بضمير الجمع وإن كان المحدث عنه إنما هو سعاد فقط إشارة إلى أنها رحلت مع قومها ، ويحتمل أنه قصد تعظيمها فعبر عنها بلفظ الجمع ، وفي نسخت : رحلت ، وهي ظاهرة .

---

(١) سورة الأنعام الآية : ٥٢ .

و (الأغن) من صفات الظبي ، فصار لغلبة الاستعمال كأنه مختص به .

و(غضيض) بمعنى مغضوض ، كذبيح بمعنى مذبوح ، وكسير بمعنى مكسور ، ونحو ذلك .

و (الطرف) المراد به هنا العين ، ثم الأصل في غض الطرف ترك التحديق واستيفاء النظر ، وكلام البيت يحتمل أمرين ، أحدهما أن يريد به كسر الجفون وفتورها على عادة الشعراء في مثل ذلك ، الثاني أن يريد به الحياء والخفر ، وكلاهما مما يتمدح به على ما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

و (المكحول) وصف الظبي الأغن ، وهو إما من الكحل ـ بفتح الكاف والحاء ـ وهو سواد يعلو العين ، وإما من الكحل ـ بضم الكاف ـ وهو الإثمد ، والمعنى في البيت ظاهر ، وحاصله أنه لما ذكر حال نفسه وما أعقبه الفراق من الضنا شرع في ذكر وصف محبوبته التي يهواها ، وما اشتملت عليه من المحاسن التي لا يقدر معها على الأسف على فراقها وإتلاف المهجة في محبتها ، فشبهها بظبي موصوف بأحسن الصفات ، وأعاد ذكرها للتعظيم ، وخص التشبيه بالظباء جرياً على عادة العرب في التشبيه بها لمخالطتهم لها بواسطة سكناها الفلوات وبطون الأودية ، إذ كل أحد إنما يقع له التشبيه بما في خزانة خياله .

واعلم أن التشبيه بالظباء إنما هو من حيث استحسانها في جنس الوحش، لا من حيث أنها أحسن من الآدمي في نفس الأمر ، قال تعالى :" لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ "(١) وقال عز وجل :" وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ "(٢) .

ثم إنه لما شبهها بالظبي وصفها بثلاث صفات تستحسن في الظبي ، الصفة الأولى الغنة في الصوت ، وهي مما يلتذ بسماعها ، ولذلك قيل في وصف

---

(١) سورة التين الآية : ٤ .

(٢) سورة غافر الآية ٦٤ .

الرياض الحسنة : روضة غناء ، من حيث أن صوت الرياح في الأشجار الملتفة يشبه الصوت الخارج بغنة ، وقد جاء في وصف الحسين عليه السلام أنه كان فيه غنة حسنة (١).

واعلم أن العشق كما يقع بواسطة النظر كذلك يقع بواسطة سماع الصوت، فقد قيل إن سبب المحبة ثلاثة أسباب ، رؤية صورة أو سماع نغمة أو سماع وصف .

قال أبو هلال العسكري(٢) في كتابه الأوائل :" وأمر الصوت عجيب ، منه ما يقتل كصوت الصاعقة ، ومنه ما يسر ويهيج حتى يرقص ويقلق ، ومنه ما يبكي ، ومنه ما يزيل العقل ، ويورث الغَشْيَ ، وتنوَّم به الصبيان ، وتستخرج به الحية من جحرها ، وأهل الصناعات إذا خافوا الملل ترنموا ، وتسقى الدواب بالصفير ، وتصغى بآذانها إذا غنى لها المُكَارِي(٣) ، وتزيد الإبل في مشيها إذا حدى لها الحادي (٤)".

الصفة الثانية غض الطرف ، فإن حملناه على كسر الجفون وفتورها كان ذلك من باب الزيادة في الحسن والجمال ؛ إذ النفوس تميل إلى ذلك في الغالب وترغب إليه ، ولم تزل الشعراء في القديم والحديث تتغزل في ذلك ، وإن حملناه على الحياء والخفر كان أبلغ في ذلك ؛ إذ الحياء مما يمدح عقلاً وشرعا.

---

(١) ذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق ٢١٥/١٤ تحقيق عمرو بن غرامة العمروي ، الناشر: دار الفكر ، بيروت ١٩٩٥م .

(٢) الحسن بن عبد الله بن سهل بن العَسْكَري، أبو هلال ، عالم بالأدب، نسبته الى (عسكر مُكرَم) بالأهواز ، توفي بعد سنة ٣٩٥هـ (ينظر : خزانة الأدب لعبد القادر البغدادي ٢٢٩/١ تحقيق محمد نبيل طريفي ، ط : دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٩٨م)

(٣) المُكَارِي : الفلاح (ينظر : لسان العرب ٢ / ٥٤٩ ، مادة : فلح)

(٤) الأوائل لأبي هلال العسكري ص ٨٨ ، ٨٩ ، ط : دار البشير ، طنطا ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ .

الصفة الثالثة سواد العيون ، وهو المراد بقوله : مكحول ، فإن جعلناه من الكَحَل الذي هو سواد جفون العين من غير اكتحال فهو في غاية المدح لاستغنائه عن الاكتحال ، وقد جاء في وصفه صلى الله عليه وسلم : في عينه كحل [١].

وبالجملة فسواد العيون مما يستحسن وتميل إليه النفوس .

وإن جعلناه من الاكتحال بالإثمد لكونه يكسو العين سوادا فالذي يظهر أنه يريد انضمام ذلك إلى الكحل الخلقي ؛ لأن التكحل لفقد الكحل في العينين ؛ لأن ذلك نقص في الحسن ، وهو خلاف المعهود .

فإن قيل : لم خص تشبيهها بالظبي في حالة الرحيل ؟ فالجواب من وجهين :

الأول : أنه يحتمل أنه أشار بذلك إلى صفة رابعة مما يتمدح بها ، وهي أنها كانت مخدرة[٢] لا ترى إلا عند الرحيل لإفضائه إلى البروز من الخباء ، والخروج من الخدر ، فكان ذلك أول وقوع بصره عليها .

الثاني : يحتمل أن يكون خص تشبيهها بالظبي بحالة الرحيل مبالغة في حسنها ؛ فإن الشخص عند الرحيل يكون في أرث حالة ، مع ما ينضم إلى ذلك من التأثر بفراق الوطن خصوصاً إذا كان مع ذلك فراق حبيب وتوديع صديق .

وحاصل معنى البيتين أن الأول يشير إلى كمال احتياج المحب إلى المحبوب ، والثاني يومئ إلى كمال استغناء المحبوب عن المحب في مقام المطلوب ، والله أعلم .

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٦٦٢/٢ ح ٤١٦٩ وقال : صحيح الإسناد (ينظر : المستدرك للحاكم ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ، ط : دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩٠م) ، وحسنه الألباني في تعليقه على الجامع الصغير للسيوطي ٤٠٩/١٨ ح ٨٧٦٢ الناشر : المكتب الإسلامي .

(٢) يقصد مقيمة في خدرها لا يراها أحد .

هَيْفَاءُ مُقْبِلةٌ، عَجْزَاءُ مُدْبِرَةٌ، ∴ لا يُشْتَكي قِصَرٌ مِنْهَا ولاَ طُولُ

(هيفاء) خبر مبتدأ محذوف ، أي هي هيفاء .

و (مقبلة) حال منه ، وكذلك عجزاء مدبرة .

والهَيَفُ ، بالتحريك أو بفتح فسكون ، دقة الخصر ، وفي القاموس : الهيف ــ محرك ــ ضمور البطن ودقة الخاصرة ، هيف ــ كفرح وخاف ــ هيفاً وهَيَفاً ، وامرأة وفرس هيفاء (١).

والمعنى : يتصورها الناظر بهذا الوصف حالة كونها مقبلة عليه .

و(عجزاء) معناه كبيرة العجيزة ، أي أن الناظر يبصرها كذلك حالة كونها مدبرة عنه ،

وقيد الحكم بكونها هيفاء بحالة الإقبال ، وعجزاء بحالة الإدبار مع أن هاتين الصفتين ثابتتان لها في جميع الأحوال لأن ظهورهما في هاتين الحالتين أتم في نظر الرائي ؛ لأنه يرى عظم العجيزة في حالة الإدبار أكثر ، ويرى ضمور البطن في الإقبال أكثر .

وفي قوله : لا يشتكى ــ بصيغة المجهول وإسناده إلى قِصَر ــ مجاز عقلي من باب : سرتني رؤيتك ، أي لا يشتكي الرائي عتد رؤيتها قصراً فيها ولا طولاً يكرهها ، فإن الاشتكاء معناه الكراهة ، والمعنى أن سعاد(٢) كلما تنقلب من وضع إلى وضع ومن حال إلى حال يحكم الناظر إليها في كل وضع بحسن طبع ، وفي كل حال بزين جمال ، فإذا أقبلت يحكم بأنها هيفاء ، وإذا أدبرت يحكم بأنها عجزاء ، لا تعاب بقصر ، ولا تذم بطول ، بل هي ربعة متوسطة القد .

---

(١) ينظر : القاموس المحيط لمجد الدين الفيروزآبادي ص٨٦٣ تحقيق : مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة ، الناشر : مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الثامنة ٢٠٠٥ م .

(٢) هكذا في م وأيضاً في ر ، والصواب : سعادا .

وهذا البيت غير ثابت في كثير من النسخ ، ولذلك لم يشرح عليه غالب الشراح[١]

تجلو عوارِضَ ذي ظَلْمٍ إذا ابتسَمَتْ ∴ كأنّه مُنْهَلٌ بالرّاحِ مَعْلُول

(تجلو) فعل مضارع مرفوع بضمة مقدرة على الواو استثقالا ، أي تكشف ، يستعمل متعدياً كجلوت الخبز ، وقاصراً كجلى الخبز نفسه ، أي اتضح ، ومصدرهما الجلا بالفتح والمد ، والفاعل ضمير سعاد ، والجملة مستأنفة ، أو خبر آخر عن سعاد عند من أجاز تعدد الخبر مختلفاً بالإفراد و الجملة .

(عوارض) مفعول به ، وهو جمع لعارضة ، وقيل : لعارض وهو أصوب وأقيس ، والعوارض الأسنان .

(ذي ظلم) ذي نعت لمحذوف تقديره : عوارض فم ، أو عوارض ثغر، ذي أي صاحب ، ظلم بفتح الظاء المعجمة ، وجمعه ظلوم كفلس وفلوس ، والظلم ماء الأسنان ، أي ريق الفم مع بريق الأسنان ولمعانها ودقتها .

(إذا ابتسمت) إذا ظرف لتجلو ، أي تجلو العوارض وتكشفها وقت الابتسام ، كأن الضمير يعود على الموصوف المحذوف ، أو على الظلم .

(ومنهل) خبر كأن ، والجملة حال من مرجع الضمير ، ومنهل ـ بضم الميم ـ بوزن مكرم ، اسم مفعول من أنهله إذا سقاه النهل ـ بفتحتين ـ وهو الشرب الأول ، وروي بفتح الميم ، اسم موضع بمعنى مورد الماء .

وقوله : (بالراح) أي الخمر ، متعلق بمنهل ، أي كان ذلك الثغر أو الفم منهل ، أي مشرب ومسقى بالراح ، أي كأنه أُسقي الراح ، أي كأنه شرب الراح شرباً أولا .

---

(١) في م : الشرح .

و(معلول) صفة لمنهل ، أو خبر ثان لكأن ، وفي الكلام حذف من الثاني لدلالة الأول عليه ، أي معلول بالراح ، ومعلول اسم مفعول ، يقال : عله يعله ــ بضم العين على القياس وبكسرها على خلافه ــ فهو معلول ، أي مسقي ثانيا ، فإن العلل ــ بفتحتين ــ الشرب ثانيا ، كما أن النهل ــ بفتحتين الشرب أولا ، أي كأن ذلك الثغر أو الفم شرب الراح نهلاً ثم علاًّ .

ومعنى البيت أن سعاد [1] إذا ابتسمت تكشف في تبسمها عن أسنان ذات ماء وبريق ، وذات بياض ودقة ، ولطيب ثغرها كأنها شارب راح شرب منه مرة بعد أخرى .

فإن قيل : كيف ساغ له أن يتغزل في هذه القصيدة بذكر الخمر التي هي أم الخبائث ؟ فالجواب أنه جرى في ذلك على عادة العرب في أشعارهم مع قرب عهده بالإسلام كما تقدم في الكلام على التغزل بالمرأة .

شُجّتْ بِذي شَبَمٍ مِن مَاء مَحْنِيةٍ ∴ صافٍ بِأَبْطَحَ أضْحى وهْوَ مشمول

(شجت) فعل ماض مبني لما لم يسم فاعله ، أي مزجت وخلطت ، والجملة صفة أو حال من الراح ، أي كسرت سورتها وخمدت فورتها .

(بذي) أي بماء ذي شبم ، فذي صفة للمجرور المحذوف ، وهو متعلق بالفعل قبله و(الشبم) بفتحتين ــ بفتح الشين المعجمة والباء الموحدة ــ البرد الشديد ، وقد شبم الماء من باب طرب ، فهو شبِمٌ .

و(من ماء) جار ومجرور صفة ثانية لماء المحذوف ، أو حال منه ، أو : من بيانية .

---

(١) هكذا في م وأيضاً في ر ، والصواب : سعادا .

و(محنية) ـ بفتح فسكون فكسر فتحتية مخففة ـ مفعلة من حنو[١] ، وأصلها محنوة ، وكل كلمة كانت لامها واواً ووقعت رابعة وقبلها كسرة فإنها تقلب ياء ، وهي منعطف الوادي ومنفرجه ومنحناه ، فإن ماءه أصفى وأرق وبالمدح أحق ، فإن أفضل مياه المطر باعتبار المكان [٢] ما كان بأبطح محنية ، وهو سيل واسع فيه دقاق الحصى ، وباعتبار الزمان ما كان في وقت الضحى ، وباعتبار الصفات القائمة به ما كان صافياً في لونه شبماً في طبعه ، وباعتبار ما يطرأ عليه ما هبت ريح الشمال لديه ، كما أشار إليه بقوله : صاف ، وهو صفة لماء ، وكذا ما بعده .

و(أضحى) يحتمل أن يكون بمعنى دخل في وقت الضحى ، فهي تامة ، والجملة بعدها حال ، ويحتمل أن تكون ناقصة ، ويكون الضمير اسمها ، والجملة بعدها خبر ، والواو زائدة .

و(المشمول) الذي ضربته ريح الشمال .

ومعنى البيت أن الماء الذي مزجت به تلك الراح بارد صاف أخذ من منعطف الوادي في مسيل واسع تربته دقاق الحصى ، وكان أخذه في وقت الضحى بعد أن ضربته ريح الشمال حتى برد .

واعلم أن الخمر إذا أبقيت على أصلها من غير خلط ماء قيل لها صرفة ، فإن صب عليها الماء قيل ممزوجة ، قل المزج أو كثر ، فإن مزجت حتى رقت ولطفت ولم تنكسر سورتها قيل مشعشعة ، فإن زيد على ذلك حتى انكسرت سورتها قيل شجت ، فإن زيد على ذلك حتى ذهبت قوتها قيل قتلت .

---

(١) في م : جنون .
(٢) في م : الكاف .

وقد اختلف شرابها هل الأول [١] أخذها صرفة أو ممزوجة ، فذهب قوم إلى اختيار الصرفة منهم حسان بن ثابت رضي الله عنه ، وذهب آخرون إلى اختيار الممزوجة .

فإن قيل : لأي معنى اختار ذكر الممزوجة على الصرفة في كلامه حيث قال : شجت ؟ فالجواب من وجهين ، الأول أن الصرفة من حيث الطب حارة يابسة ، والممزوجة حارة رطبة ، فالمزج ينقلها من اليبوسة إلى الرطوبة ، ويردها إلى التعديل بعد الإفراط ، والثاني أن الصرفة قد تؤدي إلى زوال الشعور وذهاب الإحساس ، فيصير إلى حيث لا يدري ما يقال عنده ولا ما يقال له ، ولا يدرك ما يجري في مجلسه ، فتذهب بذلك نشأتها[٢] ويرجع شاربها من حال اليقظة إلى حال النوم ، ومن حال الصحة إلى حال يشبه الموت .

ثم لما ذكر أنها مزجت بالماء وصف الماء الذي مزجت به بستة أوصاف .

الوصف الأول : كونه ذا شبم ، وهو الشديد البرد على ما تقدم تفسيره ، وذلك أن البرد في الماء مما يستطاب به شرب الماء القراح ويستعذب ، ولقد كان عليه الصلاة والسلام يعجبه الماء الحلو البارد ، حتى قال في دعائه :" اللهم اجعل حبك أحب إلي من الماء البارد "[٣] .

(١) في م : الأول .
(١) هكذا في م وأيضاً في ر ، ولعلها نشوتها .
(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/٤٧٠ ح ٣٦٢١ وقال : صحيح الإسناد ، وقال الذهبي في التعليق : بل فيه عبد الله بن يزيد الدمشقي قال أحمد : أحاديثه موضوعة ، وضعفه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير ٢٠ /٢١٠ ح ٩٦٨٣ .

وقال القطب الشاذلي يقول [١]: إذا شربت الماء الحلو البارد أشكر ربي من وسط قلبي .

الوصف الثاني : كونه من ماء محنية ، وهو ما انعطف من الوادي على ما تقدم ، قال أبو السعادات ابن الأثير [٢]في نهايته : " وإنما خص ماء محنية بالذكر لأنه يكون أصفى وأبرد " [٣].

وكأن المعنى فيه أن الرياح تتراكم فيه لانعطافه فتبرده ، كما أشار إليه في آخر البيت بقوله : وهو مشمول ، وإن كان فيه قذى أزالته الرياح ، كما أشار إليه في البيت الذي يليه بقوله : تنفي الرياح القذى عنه ، كما سيأتي بيانه .

الوصف الثالث : كونه صافيا ، وهو المراد بقوله صاف ، وذلك أن الماء إنما يصفو بخلوصه عما يخالطه من أجزاء الأرض ، فإن كان صافياً ومزجت به الخمر لا يكدرها ، بخلاف ما إذا كان كدراً فإنه يكدرها بمخالطته لها ويخرجها عن وصف الصفاء المطلوب فيها .

الوصف الرابع : كونه بأبطح ، وهو المسيل الواسع الذي تُرْبَتُه دقاق الحصى على ما تقدم بيانه ، فباتساعه يكون مظنة الكثرة ، وبكون تربته دقاق الحصى يكون مظنة الصفاء .

---

(١) لعله يقصد أبا الحسن الشاذلي ، علي بن عبد الله بن عبد الجبار المغربي ، الفقيه المتصوف المشهور ، ولد سنة ٥٩١ هـ بالمغرب ، وتوفي سنة ٦٥٦ ه، في عيذاب .(ينظر : الأعلام ٤/٣٠٥) .

(٢) المبارك بن محمد بن محمد بن عَبْد الكَرِيم الشيبانيّ الجزري ، المحدث اللغوي ، ولد سنة ٥٤٤ هـ وتوفي بالموصل سنة ٦٠٦ هـ (ينظر : البداية والنهاية لابن كثير الدمشقي ١٣/٦٥ تحقيق علي شيري ط : دار إحياء التراث العربي ، الطبعة الأولى ١٩٨٨م)

(٣) ينظر النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير الجزري ١ / ٤٥٥ طاهر أحمد الزاوى و محمود محمد الطناحي ، الناشر : المكتبة العلمية ، بيروت ١٩٧٩ م .

الوصف الخامس : كونه أخذ في وقت الضحى ، وهو أولى ما يستقى فيه الماء لقرب عهده من آخر الليل ، فيكون الماء فيه باردا ، بخلاف ما بعد ذلك من أوقات النهار التي يشتد فيها حر الشمس إلى آخر النهار.

الوصف السادس : كونه مشمولا ، وهو الذي ضربته ريح الشمال حتى برد ؛ لأن المطلوب فيه البرد كما تقدم .

فإن قبل : لم خص ريح الشمال بالذكر دون غيرها ؟ فالجواب أن ريح الشمال أشد تبريداً للماء من غيرها من الرياح ، خصوصاً بأرض الحجاز ، لرقتها ولطافتها ، وغيرها من الرياح ليس كذلك ، بل ربما هبت بعض الرياح على الماء فسخنته بمرورها عليه

تَنْفي الرِّياحُ القَذَى عنه، وأفرطَه ∴

مِن صَوْبِ سارِيةٍ بِيضٌ يَعاليل

(تنفي) مضارع نفاه إذا طرده ، ويروى : تجلو .

(الرياح) فاعل ، وهو جمع ريح ، ويجمع على أرواح وأرياح .

(القذى) منصوب على المفعولية ، وهو بالذال المعجمة ما يسقط في العين والشراب ، والمراد هنا ما يقع في الماء مما يشوبه ويكدره ، الواحدة قذاة ، يقال : قذِيَت العين ـ بالكسر ـ تقذى بالفتح ، والجملة بحسب الإعراب يصح أن تكون مستأنفة ، وأن تكون خبراً ثانياً لأضحى إن جعلتها ناقصة ، وأن تكون حالاً ، وبحسب المعنى يصح أن تكون تعليلاً لقوله صافٍ وتوكيداً له وتتميما .

و (عنه) جار ومجرور متعلق بالفعل قبله .

و(الصوب) المطر .

و (سارية) مجرور بالإضافة ، وهي السحابة تأتي ليلا ، ويروى : غادية ، بدل سارية ، وهي سحابة تأتي غدوة .

و (بيض) فاعل أفرطه ، وهو جمع أبيض أو بيضا .

و (يعاليل) صفة بيض ، وهو من العلل الذي هو الشرب بعد الشرب ، ومفرده يعلول ، يقال : ثوب يعلول إذا غذي بالصبغ مرة بعد مرة ، وقد اختلف في معنى البيض البعاليل ، فقيل : البيض الجبال ، واليعاليل الشديدة البياض ، وهو الظاهر الذي يرشد إليه المعنى ، وقيل : البيض الجبال ، واليعاليل التي ينزل منها الماء مرة بعد أخرى ، أخذاً (١) من العلل ، وهو الشرب مرة بعد أخرى على ما تقدم في البيت قبله ، وقيل : البيض الجبال ، واليعاليل المرتفعة ، وقيل : البيض السحب ، واليعاليل التي تجيء مرة بعد مرة ، ورد بأنه يصير التقدير : وأفرطه بيض سحب يعاليل من صوب سحابة سارية ، ويكون المعنى أن السحب البيض التي ملأت الأبطح استمدت الماء من مطر تلك السحابة ، وذلك يؤدي إلى أن بعض السحب يستمد المطر من بعض ، وهو خلاف المراد وغير الواقع ، بل السحب لا تكون بيضاء إلا إذا كانت خالية من المطر ، وأما إذا كانت حاملة للمطر فإن لونها يكون أغبر .

ومعنى البيت أن الرياح عند هبوبها تزيل القذي الذي بذلك [الماء](٢) أو بذلك الأبطح الذي أخذ منه الماء الممزوج به الراح حتى لم يبق فيه ما يكدره، وجاءت سحابة بالليل فأمطرته حتى امتلأ وفاض ، فاجتمع فيه الصفاء والبرودة والكثرة ، وذلك أنه لما وصف الماء الذي مزجت به الراح في البيت الذي قبله بما يرجع حاصله إلى الكثرة والبرودة والصفاء على ما تقدم تقريره هناك أتبعه في هذا البيت بما يؤكده فوصفه بخمسة أوصاف .

---

(١) في م : أخذ .

(٢) ساقطة من م .

الأول : نفي القذى عن الأبطح الذي فيه الماء ، وهو محتمل لمعنيين ، الأول أن يكون نفي القذى عنه قبل وجود الماء فيه ، بمعنى أن الرياح تهب عليه فتنسف ما فيه من تراب ونحوه مما يكدره إذا نزل عليه الماء ، فلا يبقى فيه إلا دقاق الحصى التي هي أصل تربته ، فلا يجد الماء عند حلوله (فيه) ما يكدره ، فيبقى على صفائه ، الثاني أن يكون نفي القذى عنه بعد وجود الماء فيه ، بمعنى أن الرياح تهب على الماء وهو في الأبطح فتقذف ما على وجهه مما كان في الأبطح قبل وجود الماء فيه فطفا على وجه الماء وسقط في الماء بعد حصوله في الأبطح فتطرده إلى شاطئ الوادي ، والمعنى الأول أبلغ في الصفاء لعدم ملاقاة القذى للماء جملة ، وهو أقرب إلى مراد الناظم .

الوصف الثاني : الزيادة والكثرة ، وهو المراد بقوله : وأفرطه .

الوصف الثالث : كونه من ماء المطر ، وهو المراد من قوله : من صوب ، على ما تقدم تفسيره .

الوصف الرابع : كونه من سحابة أتت بالليل ، وهو المراد بقوله : سارية ، على ما تقدم ، وذلك أن السحابة [1] إذا أتت ليلاً بقي المطر على أصله في البرودة ، فإذا أخذ من صبيحة تلك الليلة كان في غاية من البرودة .

الوصف الخامس : كونه ينزل من السماء قبل مصيره إلى الأبطح على جبال بيض صافية ليس عليها ما يكدر الماء إذا وقع عليها ، وهو المراد بقوله : بيض يعاليل على أقوى التفاسير المتقدمة ، وخص الجبال المذكورة بنزوله عليها قبل نزوله علبى الأبطح الذي هو مقره لأن الجبال مع صفائها صلبة لا ينفصل منها شيء بوقوع المطر عليها ، بخلاف الأبطح فإنه ربما أثار المطر تربته لشدة وقعه عليها .

---

(١) في م : السحاب .

* فائدة : أصول الرياح أربعة :

الصَّبَا ، وتسمى القَبول ، بفتح القاف ، لأنها تقابل بهبوبها المشرق ، وتأتي من مطلع الشمس ، قال أبو جعفر النحاس [(١)] : وهي التي تسميها أهل مصر بالشرقية ؛ لأنها تأتي من جهة المشرق .

الثانية **الدبور** ، وهي التي من مغرب الشمس ، سميت بذلك لأن من استقبل المشرق استدبرها ، وأهل مصر يسمونها الغربية ، ومهبها من مغرب الشمس إلى حد القطب الأسفل ، وهو الجنوب.

الثالثة **الشمال** ، بفتح الشين ، سميت بذلك لأنها عن شمال من استقبل المشرق ، قال أبو جعفر النحاس : ويقال لها البحرية ؛ لأنه يسار بها في البحر على كل حال ، والاسم الذي ذكره يعرف عند أهل مصر ، والعامة منهم يعتقدون أنها إنما سميت بذلك لهبوبها عليهم من جهة البحر ، ومهبها من خط القطب الشمالي إلى مغرب الشمس .

الرابعة **الجنوب** ، وهي التي يسميها أهل مصر القبلية ، وعامتهم يعبرون عنها بالمريسي ؛ لأنها تهب من بلاد المرس ، وهم طائفة من السودان حسان الوجوه[(٢)] ، ومهبها من جهة القطب الأسفل إلى مطلع الشمس .

وكل ريح جاءت من بين مهب ريحين يقال لها النكباء ؛ سميت بذلك لأنها نكبت عن مهب تلك الرياح الأربع وعدلت عنها ، ولأهل البحر الملاحين في ذلك المعرفة التامة ، والله أعلم .

---

(١) أحمد بن محمد بن إسماعيل المرادي المصري، أبو جعفر النحاس، مفسر، أديب. مولده بمصر ووفاته بها سنة ٣٣٨هـ (ينظر : الوافي بالوفيات ٧/٢٣٧) .

(٢) ينظر : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، لأحمد بن خلكان ١/٢٧٨ تحقيق : إحسان عباس ، ط : دار صادر بيروت .

أكرِمْ بِهَا خُلّةً، لو أَنّها صَدَقَتْ ∴ مَوْعُودَها أو لو انَّ النصْحَ مَقْبُول

(أكرم) فعل تعجب جيء به على صورة الأمر ، ولذلك لا يرفع الظاهر، وفاعله هنا الضمير المجرور بالباء الزائدة ، والمعنى : ما أكرمها .

و (خلة) منصوب على التمييز ،والخلة هنا ــ بضم الخاء وتشديد اللام ــ الصديقة .

و (لو) يحتمل أنها للتمني ، فلا جواب لها ، وهو الأقرب لاستغنائه عن التقدير ، ويحتمل أنها شرطية وجوابها محذوف يؤخذ مما قبلها .

و(صدقت) فعل ماض ، وفاعله ضمير يعود على خلة ، واختلف في أن وصلتها بعد لو في مثل هذا البيت ، فذهب الزجاج(١) والزمخشري (٢) إلى أنها فاعل بفعل محذوف وتقديره : لو ثبت أنها صدقت ، ونقل ابن هشام(٣) عن أكثر البصريين أنه مبتدأ محذوف الخبر وجوبا كما يحذف بعد لولا كذلك ،

(١) إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج ، عالم بالنحو واللغة ، ولد في بغداد سنة ٢٤١هـ ومات بها سنة ٣١١هـ (ينظر : تاريخ بغداد ٦/٦١٣ تحقيق بشار عواد معروف ، ط : دار الغرب الإسلامي ، بيروت الطبعة الأولى ٢٠٠٢ م).

(٢) محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي الزمخشريّ، جار الله، أبو القاسم ، من أئمة العلم بالتفسير واللغة والآداب ، ولد في زمخشر (من قرى خوارزم) سنة ٤٦٧هـ ومات في الجرجانية (من قرى خوارزم) سنة ٥٣٨هـ (ينظر : معجم الأدباء ٦ / ٢٦٨٧).

(٣) عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله ، جمال الدين المصري ، من أئمة العربية ، ولد بمصر سنة ٧٠٨هـ ومات بها سنة ٧٦١هـ (ينظر : الأعلام ٤/ ١٤٧)

ونقل ابن عصفور(١) عن البصريين ـ وزعم أنه لا يحفظ عنهم غيره ـ أنه مبتدأ لا خبر له اكتفاء بجريان المسند والمسند إليه في الصورة .

و (موعودها) يحتمل أن يكون مفعولاً والضمير مضاف إليه ، ويكون المراد به الشخص الموعود ، ويحتمل أن يكون مصدراً على رأي أبي الحسن (٢) أن المصدر يأتي على وزن مفعول كمعسور وميسور .

وقوله (أو لو ان) يقرأ بالنقل لأجل الوزن ، أي بنقل فتحة أن إلى الواو وحذف الهمزة ، وفي أن هذه الأقوال الثلاثة في التي قبلها .

و (النصح) بضم النون ، النصيحة ، وهي إرادة الخير للمنصوح له ، والألف واللام عوض عن الضمير ، والأصل : أو لو أن نصحها ، على إضافة المصدر إلى المفعول ، والتقدير : نصحي إياها .

و (أكرم) في كلامه يحتمل معنيين ، الأول ـ وهو الأقرب لمراده ـ أن يريد به كرم الحسب والشرف وطيب الأرومة ، الثاني أن يريد به خلاف البخل ، وهو الجود ، وهو الحق المتبادر إلى أفهام العامة .

ويروى : فيالها خلة ، بدل أكرم بها ، أي فيا قوم اعجبوا لها خلة .

ويروى أيضاً: يا ويحها خلة ، ويح كلمة تقال لمن وقع في هلكة لا يستحقها فيرثى له رحمة ، كما في قوله صلى الله عليه وسلم : " ويح عمار تقتله الفئة الباغية "(٣).

---

(١) هو علي بن مؤمن بن محمد الإشبيلي الأندلسي ، عالم العربية في زمانه ، ولد سنة ٥٩٧هـ وتوفي في تونس سنة ٦٦٩هـ (ينظر : شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ٧/٥٧٥ تحقيق محمود الأرناؤوط ، الناشر : دار ابن كثير ، دمشق ، الطبعة الأولى ١٩٨٦م)

(٢) يقصد الأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة المجاشعي البلخي ، أبو الحسن ، عالم العربية والأدب ، أخذ عن سيبويه وتوفي سنة ٢١٥هـ (ينظر : وفيات الأعيان ٢ / ٣٨٠)

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ١/٧٩ ح ٤٤٧ تحقيق محمد زهير ناصر ، ط : دار طوق النجاة ، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ ، و مسلم في صحيحه ٤/٢٢٣٦ ح ٢٩١٦ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر : دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

ويروى : يا ويلها خلة ، وويل كلمة تقال لمن يستحق الهلكة ، كما في قوله تعالى : " وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ..(١)" .

ولما أشار إلى عدم وفائها بالوعد بقوله : لو أنها صدقت موعودها أتبع ذلك بوصف آخر وهو عدم قبول النصح ، وهو محتمل لمعنيين :

الأول : أن يكون النصح فيما يتعلق به ويرجع نفعه في الحقيقة إليه ، وهو ترك الهجر والمطل ، والوفاء بما وعدته من الوصل ، فإن المرء يجازى بفعله ، والمظلوم منصور ، فربما رماها الدهر إلى من يوقعها في حبالة الحب فيأخذ منها بثأره ، وإذا وصلته كانت قد أبقت عليه روحه وفازت بأجره .

المعنى الثاني : أن يكون النصح فيما يتعلق بخاصتها ، وهو نهيها عن الحالات الذميمة التي أثبتها لها في البيت الذي بعده من الإصابة بالمكروه والكذب وإخلاف الوعد والملال ، إلى غير ذلك مما تضمنته الأبيات التي قبله وبعده ، مع ما وصفها به في صدر القصيدة من الخفر والجلالة والجمال التي لا يليق بصاحبها ....(٢)...[ذميم الخلال](٣) .

فإن قيل : ما المراد بالوعد الذي وعدته ولم تصدق فيه ؟ فالجواب أن سياق الكلام يقتضي أنه وعد يتعلق بالوصل والمودة وحسن العشرة ، على أنه قد تقدم أن محبتهم مصونة عن الخيانة ، بعيدة عن الريبة والزنا .

وقد حكي أن عزة(٤) دخلت على أم البنين(٥) بنت عمر بن عبد العزيز فقالت لها : ما معنى قول كثير(٦) :

---

(١) سورة الأحقاف الآية : ١٧

(٢) كلمة مطموسة في م وأيضاً في ر .

(٣) ساقط من م .

(٤) عزة بنت حميل (بالحاء، مصغرا) بن حفص بن إياس الغفارية ، صاحبة الأخبار مع الشاعر كثير ، ماتت في مصر سنة ٨٥هـ (ينظر : الأعلام ٤/٢٢٩)

(٥) في م : أم المؤمنين . والصواب أنها أخت عمر وليست ابنته ، فهي أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان بن الحكم (ينظر : البداية والنهاية ٩/١٢٨٧)

(٦) كثير بن عبد الرحمن بن الأسود بن عامر الخزاعي، أبو صخر ، شاعر، متيم مشهور، من أهل المدينة ، أكثر إقامته بمصر ، توفي سنة ١٠٥ هـ (ينظر : الأغاني ٨/١٢٥)

قَضَى كُلُّ ذِي دَيْنٍ فوفى غَرِيمَهُ ∴ وَعَزَّةُ مَمْطُولٌ مُعَنًّى غَرِيمُهَا[١]

وما كان هذا الدين ؟ فقالت : وعدته بقبلة ومطلته بها ، فقالت : أنجزيها له وعلي إثمها ــ وكانت أم البنين[٢] صالحة ــ ففعلت ، فأعتقت أربعين عبداً عند الكعبة وقالت : اللهم إني أبرأ [٣] إليك مما قلت لعزة .

ومعنى البيت أنها صديقة كريمة إلا أن فيها خصلتين منافيتين لأفعال الكرام ، وهما إخلاف الوعد وعدم قبول النصح ، فلو أنها خلت عن هاتين الخصلتين لكانت على أتم الخلال وأكملها .

وحاصل الأمر أن الإنسان كما يحتاج إلى حسن الصورة وكرم الأصل ، وكذلك يحتاج إلى حسن المعاشرة من الوفاء والصدق والود والمصافاة ولين الجانب ونحو ذلك ، إذ لو كان الإنسان في غاية الحسن والجمال ولكنه سيء المعاشرة قليل الموافاة لمجته النفوس ، ونفرت عنه القلوب ، وجفته الأصدقاء ، ورفضته الأصحاب ، بل حسن السيرة مقدم على حسن الصورة ، وقد قال الإمام فخر الدين[٤] : " إن حسن الصورة وإن كان مرغوباً فيه فإن حسن السيرة أفضل منه ؛ إذ حسن الصورة إنما يبقى أياما ، وحسن السيرة لا يزول أثره ولا تبطل نتيجته ، وحسن الصورة ربما أدى بصاحبه إلى الوقوع في المهالك والمحن والبلايا ، وحسن السيرة ينجيه من الهلاك ، وينقذه من المهاوي ، ألا ترى أن

(١) ديوان كثير ص ٢٤٤ ، ط : دار صادر ، بيروت .

(٢) في م : أم المؤمنين .

(٣) في م : أبرع ، والخبر في شذرات الذهب ١/١٣٢ .

(٤) يقصد محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري، أبو عبد الله، فخر الدين الرازيّ ، الإمام المفسر ، وهو قرشي النسب، أصله من طبرستان ، ومولده في الري سنة ٥٤٤هـ ، توفي في هراة سنة ٦٠٦هـ (ينظر : تاريخ ابن الوردي ٢/١٢٧ الناشر : دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩٦م)

حسن الصورة أدى بيوسف عليه السلام إلى السجن ، وحسن سيرته أوجب له الخروج من السجن والجلوس على سرير الملك ؟ [(١)]" والله أعلم .

لَكِنّها خُلّةٌ قد سِيطَ مِنْ دَمِهَا ∴ فَجْعٌ، وَوَلْعٌ، وإخلافٌ، وَتَبْدِيل

(لكنها) لكن واسمها ، وموقع[(٢)] لكن وما بعدها مما قبلها كموقعها في قولك : لو كان عالماً لأكرمته لكنه ليس بعالم ولا صالح ، في أنَّ ما بعدها توكيد لمفهوم ما قبلها مع زيادة عليه .

(خلة) بالضم ، أي صديقة ، خبر لكن .

(قد) حرف تحقيق مع الماضي ، بمعنى أن ما يذكره عنها من الفجع والولع والإخلاف والتبديل محقق الوجود فيها .

و(سيط) بكسر السين المهملة وإسكان إلى آخر الحروف ، بعدها طاء مهملة ، معناه خُلِطَ ، يقال : ساط الماء وغيره ، من باب قال ، إذا خلطه بغيره وضربهما حتى صارا شيئاً واحدا ، ومنه قيل للآلة التي يضرب بها : سوط ؛ لأنه يسوط الدم باللحم ، أي يخلطه به ، ويجوز أن يقرأ : شيط ، بالشين المعجمة بدل المهملة ؛ لأنه يقال : شاطه بمعنى ساطه .

و (من دمها) جار ومجرور ومضاف إليه ، ومن بمعنى الباء أو بمعنى في ، والمعنى : قد خلط بدمها ، أو فيه هذه الخلال الأربعة ، أي أنها مزجت بها حتى صارت لها خلقاً طبيعياً لا تنفك عنه .

(فجع) نائب عن الفاعل ، وهو مصدر فجعه ، من باب قطع ، إذا أصابه بمكروه .

---

(١) أسرار التنزيل وأنوار التأويل ، فخر الدين الرازي ١/٤١١ الناشر : مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولى ٢٠١٢م .

(٢) في م : موقع .

و (الولع) الكذب ، وهو مصدر ولع ، بالفتح ، ففي القاموس : وولع ، كوضع ، [ولعاً][1]وولعاناً بفتح اللام : كذب [2].

و (إخلاف) بكسر الهمزة وإسكان الخاء وبالفاء في آخره ، خلاف الوفاء ، والمراد هنا إخلاف الوعد ، بدليل قوله في البيت الذي قبله : لو أنها صدقت موعودها

و (التبديل) إبدال الشيء بغيره من الأحوال ، أو إبدال خليل بخليل بخليل، فهو وصف لها بالملال من الصحبة وأنها لا تبقى على خليل ، بل تصاحب هذا تارة وهذا أخرى ، والمعنى أن هذه المحبوبة التي ابتلي بحبها قد اشتملت على الإصابة بالمكروه والكذب وإخلاف الوعد والملال على ما تقدم بيانه .

والحاصل أنه أشار في البيت الذي تقدم إلى وصفين ، وهما إخلاف الوعد وعدم قبول النصح ، وأشار في هذا البيت إلى أنها اشتملت على أربع خصال مستلزمة لما في البيت الذي قبله وزيادة.

الخصلة الأولى : الفجع ، وهو الإصابة بالمكروه على ما تقدم ، وهو محتمل لأمور ، منها الهجر وما يتبعه من مقاساة الآلام ومكابدة الأهوال ومعالجة الأسقام ، فالهجر يذيب القلوب ويشيب الرءوس ، ومنها ما يلقاه منها من الحيف والإساءة ، ومنها ما يقاسيه من الخوف من أهلها وعشيرتها ، ومنها ما يناله من العذال من اللوم والتوبيخ ، ومنها ما يناله من الرقباء والوشاة الذين لا يهنأ معهم بعيش ولا يلذ بوصال .

الخصلة الثانية : الولع ، وهو الكذب على ما تقدم ، وهو محتمل لأمور، منها كذبها في إخفاء محبته ، وإظهار كراهته ، وتقاصيها عن وصله ، ومنها

(١) ساقط من ر .

(٢) ينظر : القاموس المحيط ص ٧٧٤ .

كذبها في دعوى العوائق عن الوصل وإقامة الحجج المانعة منه ، ومنها كذبها في الوعد ، ويكون قوله فيما بعد : وإخلاف ، تأكيداً لقوله : وولع .

الخصلة الثالثة : إخلاف الوعد ، على ما سبق ، فتعده وتمنيه ، وتمطله ولا تفيه .

الخصلة الرابعة : تبديل خليل بخليل ، وهو محتمل لأمرين ، أحدهما أن يكون ذلك حقيقة ، ويكون قد وصفها بالملال حتى لا تبقى[1] على محبوب ، بل كلما خاللت خليلاً ملته وانتقلت عنه إلى آخر ، الثاني أن يكون ذلك خيالاً منه قد خيلته له الغيرة و صَوَّرَه في نفسه من شدة الحب .

فَمَا تَدُوم على حَالٍ تَكُونُ بها ∴ كما تَلَوّنُ في أثْوابِها الغُولُ

(فما) الفاء للسببية ، أي فما جبلت عليه من الأخلاق والتبديل لا تدوم على حال .

و (تدوم) تامة لا ناقصة ؛ لأن ما المتقدمة عليها نافية لا ظرفية ، ولأنها بلفظ المضارع ، والناقصة جامدة على لفظ المضي على الصحيح ، والفاعل ضمير يعود على خلة .

و (على حال) جار ومجرور متعلق بما قبله ، والحال ما عليه الإنسان من خير أو شر ، يذكر ويؤنث ، والتأنيث لغة أهل الحجاز ، ولذا جرى عليها الناظم .

(تكون) فعل مضارع ، والجملة صفة لحال ، فكان عليه إبراز الضمير في تكون ، أي تكون هي ملتبسة بها أو عليها أو فيها، ويصح أن تكون ناقصة .

و (بها) خبرها .

---

(١) في م : يبقى .

(كما تلون) ما مصدرية ، والكاف مع مدخولها صفة مصدر محذوف دل عليه ما قبله ، إذ الذي لا يدوم على حال يكون متلونا ، فكأنه قال : إنها تتلون تلوناً كما تلون ...... الخ ، وتلون فعل[١] مضارع حذفت إحدى تائيه ، وفاعله الغول .

و (في أثوابها) جار ومجرور حال من الغول ، والضمير عائد على متأخر لفظاً متقدم رتبة وهو الغول .

و (الغول) بالضم ، واحد الغيلان ، وهو نوع من الشياطين ، قيل سميت بذلك لأنها تغتال الشخص ، أي تأخذه من حيث لا يدري فتهلكه ، وكل شيء اغتال الإنسان فأهلكه قيل له الغول ، أو لأنها تتغول ، بمعنى تتلون ، أخذاً من قولهم : تغولتُ على البلادِ ، إذا اختلفتُ .

تزعم العرب أن الغول تترائى في الفلاة بألوان شتى ، تأخذ جانباً عن الطريق فيتبعها من يراها ظاناً أنها على طريق ، فيضل عن الطريق فيهلك ، وربما قالوا إنها تعترضهم في الطريق فتحاربهم .

وقد اختلفوا في وجودها حقيقة ، فذهب قوم إلى أنها لا حقيقة لها ، وإنما هي من خرافات العرب التي تلهج بها مع غيرها من الأمور المستحيلة التي هي أسماء على غير مسميات ، وذهب آخرون إلى وجودها حقيقة محتجين بقوله صلى الله عليه وسلم : " إذا تغولت الغيلان فبادروا بالأذان" [٢] وقال صلى الله عليه وسلم في حديث آخر : " لا غول "[٣] .

---

(١) في م : فعله .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٢٣ / ٣١٦ ح ١٥٠٩٢ تحقيق شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد ، ط : مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الأولى ٢٠٠١م ، وضعف إسناده شعيب الأرنؤوط .
(٣) مسلم ٤/ ١٧٤٤ ح٢٢٢٢ .

ولكن السعالي وهي إناث الشياطين ، وقيل سحرتهم ، وهم الذين لهم القدرة على التلبيس والتخييل ، والسعالي جمع سِعالة ، بكسر السين ، أو سِعْلَى ، بكسرها أيضاً مع المد والقصر كما في القاموس ، وقيل الغيلان التي تترائى بالليل، والسعالي التي تترائى بالنهار .

ومعنى البيت أن هذه المرأة لا تدوم على حال ولا تبقى على خليل ، بل تتغير من حال إلى حال ، وتنتقل من خليل إلى غيره ، وتتلون بألوان شتى ، وتترائى في صور مختلفة ، فتارة تصل وتارة تقطع ، وتارة ترضى وتارة تغضب، وتارة تجفو وتارة تود ، وتارة ترغب في خليل وتارة ترغب عنه .

وَلاَ تَمَسّكُ بالعَهد الذي زَعَمَتْ ∴ إلاّ كما يَمسِكُ الماءَ الغَرابِيلُ

(ولا تمسك) عطف على (فما تدوم) ، وتمسك إما بضم التاء وكسر السين المشددة ، وإما بفتحها ، مضارع مسك ، بمعنى تمسك ، وأصله تتمسك فحذفت التاء الثانية كما تقدم .

و (بالعهد) جار ومجرور ، وهو متعلق بالفعل قبله .

وقوله (الذي) صفة للعهد .

و (زعمت) فعل مضارع ، والتاء علامة التأنيث ، والفاعل مستتر ، إما بمعنى تكفلت بوقوعه ، ومصدره الزعم بالفتح ، والتقدير : الذي زعمت به ، كقوله تعالى : " وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ " (١) وإما بمعنى قالت ، ومصدرها الزعم بتثليث أوله ، وهو قول يدعيه المدعي محتمل للحق والباطل ، وغلب استعماله في الباطل كقوله تعالى :" فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ "(٢) والجملة صلة الموصول ، والعائد محذوف تقديره زعمت به أو زعمته على الوجهين .

---

(١) سورة يوسف الآية : ٧٢ .

(٢) سورة الأنعام الآية : ١٣٦.

و(إلا) إيجاب للنفي .

و (كما) الكاف جارة ، وما مصدرية ، وهي وصلتها في موضع جر بالكاف ، والجار والمجرور إما حال من ضمير تمسك ، أي ولا تمسكه إلا شبيهاً بهذا الإمساك ، وهذا الاستثناء نظير الغاية ، كقوله تعالى : " حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ"(١) وقولهم : " حَتَّى يَبْيَضَّ القَار "(٢).

و(يمسك الماء الغرابيل) فعل مضارع من أمسك الرباعي ، ومفعول مقدم وفاعل مؤخر ، والغرابيل جمع غربال ، كمفاتيح جمع مفتاح ، وهو الذي تغربل به الحنطة ونحوها .

ومعنى البيت أنها لا وثوق(٣) بعهدها ، ولا اعتماد على قولها .

وشبه إمساكها للعهد بإمساك الغربال للماء لأن الماء بمجرد وضعه في الغربال يخرج منه ، مبالغة في النقض والنكث وعدم الوفاء ، ففيه تشبيه معدوم بمعدوم في صفة العدم .

وحاصل الأمر أنه وصفها في البيت السابع بأربعة أوصاف ، وهي الإصابة بالمكروه والكذب وإخلاف الوعد وتبديل خليل بآخر على ما تقدم بيانه هناك ، ثم رتب على ذلك ثلاثة أوصاف أخرى ، فوصفها في البيت الثامن بوصفين ، هما عدم المداومة على حال واحد والتلون بألوان مختلفة ، ثم وصفها في هذا البيت بأنها لا تمسك على عهد ولا تقف عنده .

---

(١) سورة الأعراف الآية : ٤٠ .

(٢) فصل المقال في شرح كتاب الأمثال لأبي عبيد البكري ص ٤٤٧ ط : مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٨٣م

(٣) في م : توف .

فإن قيل : كيف ساغ له أن يصف محبوبته بهذه الصفات التي لا يليق أن يصف بها الشخص عدوه فضلاً عن حبيبه ؟ فالجواب عنه من وجهين ، أحدهما أن وصفه لهها بهذه الأوصاف راجع إلى ما يتعلق بأحوال المحبة من الوصل والهجر وما شاكل ذلك ؛ لأنه وصفها بذلك على الإطلاق ، وإذا كان ذلك خاصاً بأحوال المحبة لم يكن قادحاً في الموصوف به ، فشأن المحبوب الهجر والتجني والإعراض والتعنت ، ولا يكون هجره مؤثراً ، ولا تعنته في المحبة قادحا، والثاني أن يكون وصفها بهذه الأوصاف لتنفير الغير عنها ، فربما سمع شخص وصفها بالحسن فبعثه ذلك على حبها سبباً لمباينتها له ، فأراد أن يبين أنها مع ما وصفها به من الحسن سيئة[1] العشرة ، لا تفي بوعد ولا تقف عند عهد ، لتقل الرغبات في طلبها ، وتنفر النفوس عن حبها .

واعلم أن هذه الأوصاف تقع من المحبوب على أربعة أنواع :

النوع الأول : أن يكون عن تيه ودلال ، وعلاجه بالتذلل والاستعطاف والتملق ، ليأخذ بقلب محبوبه ويستميل بالود خاطره .

النوع الثاني : أن يكون عن ملال وضجر ، وعلاجه تحمل المشقة والإمساك عن المحبوب ، واختياره وقتاً فوقتا ، فكيف ما أحس منه بالملال أمسك عنه إلى أن يتحقق منه ذهاب الملال .

النوع الثالث : أن يكون ذلك عن ذنب صدر من المحب ، وعلاجه التوبة من ذلك الذنب والإقلاع عنه ، حتى لو رماه محبوبه بذنب لا حقيقة له أظهَرَ له من التوبة والتغفل .

النوع الرابع : أن يكون عن بغض من المحبوب له ، وهذا هو الداء العضال الذي يعسر علاجه ويشق برؤه ، ولأهل المحبة فيه مذهبان :

---

(١) في م : سيئية .

المذهب الأول : التحمل والصبر والمغالطة والخداع لعله أن ينخدع أو يرق .

المذهب الثاني : أخذ المحبوب بالقهر إن لم يسمح بالوصل ، كما وقع لبعضهم .

فَلا يغُرّنْكَ مَا مَنّتْ، وما وَعَدَتْ، ∴

إنّ الأَمَانيَّ والأحْلامَ تَضْليلُ

(الفاء) لمحض السببية ، كالواقعة في جواب الشرط ؛ لأن ما قبلها خبر وما بعدها طلب ، وعطف أحدهما على الآخر ممنوع على الصحيح .

و (لا) نافية .

(يغرنك) فعل مضارع مبني لمباشرة نون التوكيد الساكنة هنا لأجل الوزن ، من غره ، خدعه وجعله مغرورا ، والضمير مفعول به ، والخطاب يحتمل وجهين :

الأول : أن يكون خطاباً لكل أحد ، كما يقال : فلان لئيم ، إن أكرمته أهانك ، وإن أحسنت إليه أساء لك ، لا يريد مخاطباً بعينه ، ومنه قوله تعالى : " وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ "(١) إذا لم يُجعل الخطاب فيه متوجهاً للنبي صلى الله عليه وسلم .

والثاني : أن يكون خطاباً لنفسه ، وهذا يسميه أهل المعاني والبيان التجريد ، وهو أن يجرد من نفسه شخصاً ويوجه الخطاب إليه ، وحينئذ فيكون فيه التفات من التكلم إلى الغيبة من حيث لأنه صدر الكلام في البيت الأول من القصيدة بصيغة التكلم بقوله :

فقلبي اليوم متبول

ثم رجع هنا من التكلم إلى الخطاب لنفسه بقوله :

---

(١) سورة السجدة الآية ١٢ .

فيكون قد انتقل من التكلم إلى الخطاب ، وهو نوع من الأنواع الستة المذكورة في أنواع البديع .

أما إذا جعلنا قوله : **فلا يغرنك** ..... خطاباً لغيره فلا التفات فيه حينئذ.

و (ما) يحتمل أن تكون موصولاً اسمياً بمعنى الذي ، فموضعها رفع بالفاعلية ، وأن تكون نكرة موصوفة بمعنى شيء ، فتكون أيضاً فاعلا ، وأن تكون مصدرية بمنزلة أن ، وأن وصلتها في موضع رفع بالفاعلية ، ولا يكون الموضع لها وحدها ؛ لأنها حرف على الصحيح ، بخلاف الموصوفة الاسمية ، فإن الموضع لها وحدها من غير الصلة ، بدليل ظهور الرفع في نفس الموصول ، نحو : جاء اللذان قاما ، وليقم أيهم هو أفضل

و (منت) فعل ماض ، وعلامة التأنيث ، والفاعل ضمير مستكن فيه يعود عليها ، من التمنية ، وهي أن يحمل أحداً على التمني لشيء ، أو منت بمعنى كذبت ، يقال : منّاه بكذا يمنيه ، إذا كذبه ، أخذاً من منَى يمني ، إذا قَدَّرَ الشيءَ ، لأن الكاذب يقدِّر الحديث في نفسه ثم يقوله .

فإن جعلت ما اسمًا موصولاً فالتقدير : منتكه ، أو منت إياهً ، وإن جعلتها حرفاً مصدرياً فالتقدير : منتك الوصل ، أي فلا يغرنك تمنيها إياك الوصل .

وإنما كان التقدير ذلك لأن الضمير إنما يعود على الأسماء .

(وما) الواو عاطفة ، وما فيها الأوجه الثلاثة .

و (وعدت) فعل ماض وعلامة التأنيث ، ويتعدى إلى اثنين ، قال تعالى : " وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً "(١) " أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ "(٢) فالتقدير أيضا : ما وعدتكه ، أو ما وعدتك إياه ، أو ما وعدتك الوصل ، والمعنى لا يغرنك

(١) سورة الفتح الآية : ٢٠ .

(٢) سورة القصص الآية : ٦١ .

تمنيها إياك الوصل ، ووعدها إياك بترك الهجر والوصل ، فالإسناد سببي مجازي، أي لا يغرنك سعاد بسبب تمنيها في المقال ووعدها بتمام الوصل(١) .

والوعد هنا مستعمل في الخير ؛ لأن المقام لا يحتمل غيره ، وقد يأتي للشر ، قال تعالى : " وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ "(٢) وإذا لم تكن قرينة فالوعد للخير والإيعاد للشر ليس إلا .

و (إنّ) حرف توكيد ينصب الاسم ويرفع الخبر ، وكسرت همزتها لوقوعها في الابتداء ، ولأن كسرها هو الرواية ، ولكن المعنى على التعليل ، فالمصراع الثاني تعليل للأول ، ومثله في تعليل النهي : " وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا "(٣) وفي تعليل الخبر : " إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ " (٤).

و (الأماني) اسمها ، وهو جمع أمنية ، كالأضافي (٥) والأواقي(٦) ، وتخفيف الياء جائز .

و (الأحلام) معطوف على اسم إن ، فهو منصوب ، ويجوز رفعه هنا باتفاق .

---

(١) في ر : الوصال .
(٢) سورة غافر الآية : ٢٨ .
(٣) سورة النساء الآية : ٢ .
(٤) سورة الطور الآية ٢٨ .
(٥) هكذا في م وأيضاً في ر ، ولعلها الأضاحي .
(٦) الأواقي): جمع واقية بمعنى: حافظة وراعية (ينظر : اللمحة في شرح الملحة لمحمد بن الحسن الصايغ ، تحقيق : إبراهيم سالم الصالحي ٢/٦٠٥ الناشر : الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، الطبعة الأولى ٢٠٠٤م)

والبصريون يقولون هو إما مبتدأ وحذف خبره والجملة معترضة بين اسم إن وخبرها ، وإما مبتدأ خبره ما بعده ، وحذف خبر إن لدلالة خبر المبتدأ عليه .

والكوفيون يقولون هو معطوف على محل اسم إن قبل دخولها .

والأحلام جمع حلم بضمتين ، وهو ما يراه النائم ، وفعله حَلَم بالفتح ، والحلم بالكسر ، الصفح وكرم الخلق ، وفعله حلم بالضم ، والحلم بفتحتين فساد الجلد وتعفنه ، وفعله حلم بالكسر ، وفي المصباح : حلم يحلم ، من باب قتل ، حلما ، بضمتين وإسكان الثاني تخفيف ، واحتلم رأى في منامه رؤيا ، وحلم الصبي واحتلم ، أدرك وبلغ مبالغ الرجال ، فهو حالم ومحتلم ، وحلم بالضم حلماً بالكسر ، صفح وستر ، فهو حليم ، وحلم البعير كفرخ ، كثر حَلَمُه ، وحلم الجلد كفرخ أيضا ، وقع فيه الحلم ا هـ .

و(تضليل) تفعيل من الضلال ، أي تضييع وإبطال ، والأصل ذوات تضليل ، كقوله تعالى : " هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ "(١) أي ذوو درجات ومراتب عاليات، أو جعلت نفس التضليل مبالغة ، على حد قولهم : رجل عدل ، وإنما هي إقبال وإدبار ، أو صاحب الأماني مضلل بفتح اللام ، أي منسوب إلى الضلال ، وأن الأماني سبب التضليل ، وأن الأماني مضللة ، على الإسناد المجازي العقلي ، من باب الإسناد إلى السبب .

ومعنى البيت : لا تغتر بما ترجِّيه إليك من زخرف القول وكذب القول، ولا تعلق خاطرك بتلك الأماني التي يتمناها الإنسان ، والأحلام التي يراها في منامه ؛ فإنها تضييع زمان ولا فائدة فيه ، ولا طائل تحته .

وذلك أنه وصفها في البيت السابع والثامن والتاسع بتسعة أوصاف ، وهي الإصابة بالمكروه ، والكذب ، وإخلاف الوعد ، وتبديل خليل بآخر ، وعدم

---

(١) سورة آل عمران الآية : ١٦٣ .

المداومة على حالة ، والتلون في الود ، وعدم الوفاء بالعهد ، على ما تقدم بيانه في موضعه ، ومن كان بهذه الصفات لا ينبغي أن يوثق له بقول ، ولا يتعلق له بوعد ، ومن تعلق بالأماني ووقف مع التمني فقد طمع في المحال وأمل ما لا يرجى بالأماني ، فأتعب نفسه وشتت خاطره ، ولما نهى عن الاغترار بما تمنيه وما بعده أكد ذلك بقوله :

إن الأماني والأحلام تضليل

بمعنى أن الأماني راجعة إلى قوله : ما منت ، والأحلام راجعة إلى قوله : وما وعدت ، ويكون من باب اللف والنشر المرتب ، فالأول للأول والثاني للثاني .

ويكون قد شبهها في الأمرين بشيئين باطلين لا حقيقة لهما ، أما الأماني فهي مخائل فاسدة وضياع زمان فيما لا فائدة فيه ، وأما الحلم بالمحبوب وزيارة طيفه في المنام فإنه الحال الحائل ، والوصال الذي ليس تحته طائل ، والله أعلم .

كانتْ مَواعِيدُ عرقوبٍ لها مَثَلاً ، ∴

وما مَواعِيدُها إلاّ الأباطيل

(كانت) فعل ماض وعلامة التأنيث ، ولكان الناقصة معنيان ، أحدهما الدلالة على ثبوت خبرها لاسمها في الزمن الماضي ، نحو : كان زيد فقيرا[1] ، الثاني الدلالة على تحول اسمها من وصف إلى آخر ، نحو : " وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا * وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً " [2] أي فصارت وصرتم ، ومنه كان التي في البيت ، أي صارت مواعيد عرقوب لها مثلاً بين الناس لشهرة اتصافها بالإخلاف .

(١) في م : فقير .
(٢) سورة الواقعة الآيات : ٥ ــ ٧ .

و (مواعيد) اسم كان ، وهو جمع ميعاد بمعنى المواعدة ، كموازين جمع ميزان ، بمعنى الموازنة ، لا جمع موعود بمعنى وعيد ؛ لأن المعنى ليس عليه بسديد ، ولا حاجة إلى جعله جمع موعود بمعنى وعد ؛ إذ مجيء المصدر على مفعول إما معدوم من أصله أو نادر في نقله .

و (عرقوب) مضاف إليه ، وهو مضموم الأول كعصفور ، وهو علم منقول من عرقوب الرِّجْل ، وهو ما انحنى فوق عقبها ، أو من عرقوب الوادي ، وهو منعطفه ، وهو رجل من العمالقة يسمى عرقوب بن معبد بن زهير ، أحد بني شمس بن ثعلبة ، وقيل غير ذلك ، وكان من خبره أنه وعد خاله بيثرب ثمر نخلة، وقال : ائتني إذا طلع النخل ، أي خرج طلعه ، فلما طلع قال : ائتني إذا بلح، أي صار بلحا ، بفتحتين ، والبلح قبل البُسر ، بضم فسكون ، فلما أبلح قال : ائتني إذا أزهى ، أي احمر واصفر بسره ، فلما أزهى قال : ائتني إذا أرطب ، فلما أرطب قال : ائتني إذا صار تمرا ، فلما صار تمراً جزه من الليل ولم يعطه شيئا ، فضربوا به المثل في الإخلاف فقالوا : أخلف من عرقوب [(١)].

وقوله (لها) خبر كانت ، أي حاصلة لها .

وقوله (مثلا) حال ، أو مثلاً خبر كانت ، ولها حال

والمثل كل شيء حاكيت به شيئا ، ومنه قيل للصور المنقوشة تماثيل، وهي جمع تمثال ، ويطلق المثل على ثلاثة أمور :

أحدها : المثل ، بكسر الميم وسكون الثاء المثلثة ، يقال مِثل ومَثل ومثيل، كشبه وشبه وشبيه .

الثاني : القول السائر .

---

(١) ينظر : جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري ٤٣٣/١ الناشر : دار الفكر بيروت .

الثالث : النعت ، نحو قوله تعالى : " وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى " (١) " ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ "(٢) .

(وما مواعيدها) على الرواية المشهورة ، الواو عاطفة ، وما نافية ، ومواعيدها مبتدأ ومضاف إليه ، ويروى : مواعيده ، أي عرقوب .

و (إلا) إيجاب للنفي .

و (الأباطيل) خبر المبتدأ ، وهي جمع باطل ، الذي هو ضد الحق .

ومعنى البيت أن هذه المرأة اشتهرت بإخلاف الوعد كما اشتهر به عرقوب فصارت شبيهة له في ذلك ، حتى لو ضرب بها المثل لكانت جديرة به .

ثم إن أنشد : وما مواعيدها على الرواية المشهورة كان ذلك تأكيداً لإخلافها الوعد ، فإنه بعد أن ضرب لها عرقوباً مثلاً في الإخلاف ذكر أن مواعيدها باطلة لا حقيقة لها ، ولم يكتف بضرب المثل بها حتى وصف مواعيدها بالأباطيل ، فكانت أسوأ حالاً في المطل والإخلاف منه .

وإن أنشد : وما مواعيده ، على الرواية الأخرى كانت مماثلة لعرقوب في المطل من غير زيادة عليه .

واعلم أن المحبين اختلفوا في مطل المحبوب على مذاهب ، فقوم يحملهم طلب اللقاء وعدم احتمال الجفاء على مناقشة الحبيب على إخلافه ، ولومه على عدم موافاته ، وعلى هذه الطريقة جرى الناظم رحمه الله تعالى في قصيدته ، وأكثر فيها من وصفها بإخلاف الوعد وتقريعها في قوله في البيت السادس :

أكرم بها خلة لو أنها صدقت ∴ **موعودها** .... **البيت** .

---

(١) سورة النحل الآية : ٦٠ .

(٢) سورة الفتح الآية : ٢٩ .

وقوم يستعذبون المطل ، ويستحلون كواذب الأماني ، ويتسلون به عن الوصل ، وآخرون يعدون الوعد والأماني سبب الحياة عند فوات الأصل .

وكأن ذلك يختلف باختلافه رتب المحبين في القرب والبعد والقوة والضعف .

أَرْجو وآمُلُ أنْ تَـدْنُو مَوَدّتُها ∴ وما إخالُ لدينا منكِ تَنْوِيلُ

(أرجو) فعل مضارع مرفوع بضمة مقدرة على الواو ، والفاعل ضمير المتكلم ، وللرجاء معنيان ، أحدهما التأميل ، وهو المراد هنا ، ويستعمل في الإيجاب والنفي ، كقوله تعالى : " وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ " [١]والثاني الخوف ، كقوله تعالى : " مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا " [٢]وقيل إن الرجاء بهذا المعنى يختص بالنفي ، وقيل لا .

(وآمل) الواو عاطفة ، والفعل مضارع ، والفاعل ضمير المتكلم ، قيل: وإنما عطف آمل على أرجو لأن الأمل يكون في الممكن والمستحيل ، والرجاء يخص الممكن ، فهو عطف عام على خاص ، والصواب أن صحة العطف لاختلاف اللفظ ، وأنه من عطف الرديف ، كقوله تعالى : " فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا " [٣] والفرق المذكور إنما هو بين التمني والرجاء لا بين الأمل والرجاء .

(أن تدنو) أي تقرب ، وأن حرف مصدري ينصب الفعل المضارع ، وتدنو فعل مضارع ، وكان حقه النصب بفتح الواو ، فيحتمل أن يكون أهمل أن

(١) سورة النساء الآية : ١٠٤ .
(٢) سورة نوح الآية : ١٣ .
(٣) سورة آل عمران الآية : ١٤٦ .

المصدرية حملاً على ما المصدرية ، ويحتمل أن يكون أجرى الفتحة في الواو مجرى الضمة للضرورة فسكنها .

قال المبرد[١] : وهو من أحسن الضرورات ، أي فيكون منصوباً بفتحة مقدرة على الواو .

و (مودتها) فاعل ومضاف إليه ، والضمير لسعاد ، وأن وما بعدها تنازعه الفعلان ، فأعمل الثاني وحذف مفعول الأول .

(و ما أخال) الواو عاطفة ، وما نافية ، وأخال فعل مضارع بمعنى أظن، وهما سيان أيضاً في العمل وسائر الأحكام ، وإذا كان أخال بمعنى أظن فالأكثر فيه كسر الهمزة ، وقد تفتح لدينا .

ومذهب سيبويه [٢] أن لدى مرادف لعند ، وتكون للقرب الحسي والمعنوي، فالأول كقوله تعالى : " إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ " [٣]والثاني كقولك : لديه فقه وأدب ، وتقلب ألفها ياء إذا أضيفت للضمير كما هنا .

(منك) بكسر الكاف ، أي من جهتك ، جار ومجرور خبر المبتدأ بعده ، وفيه التفات من الغيبة ، وهي قوله : مودتها ، إلى الخطاب .

(تنويل) أي إعطاء نوال وإيصال وصال ، يحتمل أن يكون مرفوعاً فاعلاً بالظرف ، وهو منك أو لدينا ، إما على قول الأخفش والكوفيين أنه لا يشترط في

---

(١) محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الأزدي ، أبو العباس، إمام العربية ببغداد في زمنه، وأحد أئمة الأدب والأخبار ، مولده بالبصرة سنة ٢١٠هـ ووفاته ببغداد سنة ٢٨٦هـ (ينظر : تاريخ بغداد ٣/٣٨٠)

(٢) عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء ، أبو بشر ، إمام النحاة ، وأول من بسط علم النحو ، ولد في شيراز سنة ١٤٨هـ وتوفي في الأهواز سنة ١٨٠هـ (ينظر : البداية والنهاية ١٠ /١٧٦)

(٣) سورة غافر الآية ١٨ .

إعمال الظرف الاعتماد فلا إشكال ، وإما على قول الجمهور أن ذلك شرط ، فعلى أن يكون المبتدأ أُخبر عنه بالظرف كما تقدم .

وساغ الابتداء بالنكرة لتقدم النفي ولتقدم خبره الظرف .

واعلم أن في البيت أربع جمل ، الأولى أرجو وفاعله ، ولا محل لها لأنها مستأنفة ، والثانية وآمل ، ولا محل لها أيضا ؛ لأنها معطوفة على ما لا محل له، الثالثة أخال وفاعله ، وهي مستأنفة أيضا لا حالية ؛ لأن المضارع المنفي بما كالمثبت في وجوب تجرده عن واو الحال ، الرابعة لدينا منك تنويل ، ولا محل لها إن قدرت أخال ملغاة ، بسبب أن النافي لما تقدمها أزال عنها التصدر المحض فسَهُلَ إلغاؤها ، ومحلها النصب إن قدرت أخال عاملة أو معلقة ؛ لأنها مفعول ثان على الأول ، وفي موضع المفعولين على الثاني .

والمعنى : أني مع اتصافها بالجفاء وإخلاف الوعد وعدم الوفاء بالعهد لا أقطع الرجاء من مودتها ، ولا أيأس من وصلها ، بل أرجو ذلك وآمله وإن كان فيه بعد ، وبيانه من وجهين ، أحدهما أنه لما وصفها بأوصاف القطيعة والجفاء في أول البيت السابع إلى آخر البيت الحادي عشر على ما تقدم بيانه في مواضعه أخذته دهشة المحبة ، فذهل عما هي عليه من ذلك ، فتعلق بالرجاء وجنح إلى الأمل ، فقال أرجو وآمل أن تدنو مودتها ، إذ لا يليق بالشخص أن يقطع رجاه من مطلوبه ، ثم رجع إلى عقله فتذكر ما هي عليه من الأوصاف المخالفة لذلك فقال وما أخال لدينا منك تنويل ، وهذا النوع يسميه أهل البديع الرجوع ؛ لأنه يرجع إلى كلامه السابق بالنقض ، الثاني أن يكون الرجاء والأمل وقعا منه على سبيل تعليل(١) النفس ومراوحتها كيلا يغلب عليها اليأس .

---

(١) في م : بقليل .

أَمْسَتْ سُعادُ بِأرْضٍ لا يُبَلِّغُها ∴ إلاّ العِتاقُ ، النّجيباتُ، المراسِيلُ

(أمست) يحتمل معنيين ، أحدهما أن يكون المراد دخلت في وقت المساء، فتكون تامة ، ويكون مقابل الغداة في قوله في البيت الثاني :

وما سعاد غداة البين إذ رحلوا

أو يكون المعنى أنها رحلت غدوة وأمست بأرض بعيدة ، ويكون قد وصفها في رحيلها بسرعة السير ، بحيث سارت في اليوم الواحد مسافة لا تدرك إلا بالعتاق النجيبات المراسيل من الإبل على ما سيأتي تفسيره ، خصوصاً وقد تقدم في البيت الثاني أنه عبر عن رحيلها بلفظ الجمع إشارة إلى أنها رحلت مع قومها ، والقوم إنما يرحلون في الغالب بأثقالهم ، فإذا بلغت المسافة البعيدة على الإبل المثقلة كان ذلك في الغاية القصوى من سير الإبل التي رحلت بها وسرعة سيرها .

الثاني : أن يكون أمست بمعنى صارت ، فتكون ناقصة ، ويكون قوله : بأرض خبرها ، ويكون المراد أنها وصلت في رحيلها إلى أرض بعيدة في الجملة من غير تقدير ، وهو أبلغ في بعد المسافة ؛ لأن الوصف مستلزم لطول زمن السير ، وهذا هو الظاهر .

و (سعاد) هي المحدث عنها أولا ، وأعاد اسمها هنا بعد قوله تدنو مودتها بلفظ الغيبة لأنه قصد استئناف نوع آخر من الكلام ، وهو وصف أرضها بالبعد ، وذكر ما يوصل إلى ذلك من وصف الناقة .

وقوله (بأرض) أي في أرض ، كما في قوله تعالى : " وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ "(١) أي في جانب .

---

(١) سورة القصص ، الآية : ٤٤ .

وقوله (لا يبلغها إلا العتاق) أي لا يبلغ تل الأرض إلا النوق العتاق من الإبل ، وفي نسخة : وما يبلغها ، ومعنى يبلغها يوصل إليها ، وهذا الفعل يحتمل أن يكون منقولاً بالتضعيف من بلغ ، فيتعدى إلى مفعولين ، كعرفته المسألة ، والأصل ما يبلغتيها ، ثم حذف المفعول الأول ، ويحتمل أن يكون بمعنى يُبْلِغها ، فيكون متعدياً إلى واحد .

و (العتاق) بكسر العين ، جمع عتيق ، وهي الكرام الأصول من الإبل ، لأنها أعتقت من العيوب ، والمراد ما كان منها منسوباً إلى نتاج فحل كريم .

(النجيبات) ، بإسكان الياء ، جمع نجيبة ، قيل : هي الكريمة الأصل ، ويكون تأكيداً لقوله : العتاق ، وقيل : القوية الخفيفة السريعة ، وقيل : النفيسة الفاضلة في نوعها ، ويروى : النجيات ، بتشديد الياء ، وهي السريعات .

(المراسيل) بفتح الميم ، جمع مرسال بكسرها ، أي السريعات ، من قولهم : ناقة رسلة ، بفتح الراء وإسكان السين ، إذا كانت سريعة رفع اليدين في السير .

ومعنى البيت أن محبوبته صارت إلى أرض بعيدة لا يوصله إليها إلا النفائس من الإبل القوية السريعة السير لبعد مسافة ما بينه وبينها .

وَلَنْ يُبَلّغَها إلاّ عُذافِرَةٌ، ∴

فيها على الأينِ إرْقالٌ وتَبْغِيل

(ولن) الواو عاطفة على قوله لايبلغها ، ولن حرف نفي ونصب واستقبال ، وفي نسخة : لا تُبَلّغها .

(يبلغها) فعل مضارع منصوب بلن ، والضمير مفعول عائد إلى الأرض لا على سعاد ؛ لأن يبلغ هذه معطوفة على يبلغ تلك ، فهي مثلها في أنها صفة

لأرض ، ولا بد من تحملها ضميرها حتى يجيء فيها الوجهان السابقان [١] في تلك ، وهما التشديد والتخفيف .

(إلا) إيجاب للنفي .

(عذافرة) بدل من الفاعل كما سبق ، وهو بضم العين المهملة وفتح الذال المعجمة وبعد الألف فاء وراء مفتوحتان ، ومعناه الناقة الصلبة العظيمة الجسم ، وجمعها عذافر بفتح أوله ، وألفه كألف مساجد ، وليست هي التي كانت في المفرد ،بل تلك حذفت.

(فيها) جار ومجرور خبر المبتدأ بعده ، وفي نسخة : لها على الأين ، جار ومجرور حال ، فتتعلق بمحذوف ، أي كائنة ، وعلى بمعنى مع ، مثلها في قوله تعالى : " وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ "[٢]

و (الأين) الإعياء والتعب ، واختلف هل يبنى منه فعل أولا على مذهبين .

(إرقال) مبتدأ وفاعل بالظرف ، وهو مصدر أرقل البعير ، والإرقال نوع من الخبب .

و (تبغيل) معطوف على إرقال ، والتبغيل مشي فيه اختلاف ، أي توسط بين العنق والهملجة ، فكأنه شبهه بسير البغال لشدته .

وهذا البيت تأكيد لما قبله في إفادة بعد المسافة ، ومعناه أن هذه الأرض لا يبلغها إلا ناقة عظيمة صلبة سريعة العدو من صفتها أنها إذا أعيت من السير سارت هذين النوعين منه ، فما ظنك بها إذا لم تعي ؟ .

---

(١) في م : السبقان .
(٢) سورة الرعد الآية : ٦ .

مِنْ كلِّ نضَّاخَةِ الذفْرى إذا عَرِقَتْ ∴ عُرْضَتُها طَامِسُ الأعْلامِ مَجْهُولُ

(من كل) جار ومجرور ، ومن للتبعيض ، قيل : أو لبيان الجنس ، أي التي هي ناقة من كل، ومحل الجار والمجرور رفع خبر لهي المحذوفة ، أو نصب على الحال من عذافرة.

(نضاخة) صفة لمحذوف ، أي من كل ناقة نضاخة ، والنضخ ، بالمهملة ، الرش القليل ، وبالمعجمة ــ كما في البيت ــ الكثير ، قال تعالى : " فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ " (١) أي فوارتان ، هذا هو المشهور المعروف .

قال أهل الاشتقاق : الواضع يضع الحرف القوي على المعنى القوي ، والضعيف على الضعيف .

(الذفرى) بكسر الذال المعجة وإسكان الفاء وفتح الراء ، بوزن سدرى ، وهي النقرة التي خلف أذن الناقة والبعير ، وهي أول ما يعرف منها ، مشتق من الذفر ، بفتحتين ، وهو الرائحة الظاهرة ، طيبة كانت أو غيرها ، والذفرى في الأصل مرفوع على الفاعلية بضمة مقدرة على الألف للتعذر ، والأصل : نضاخة ذفراها ، ثم حول الإسناد عن الذفرى إلى ضمير الناقة ، وانتصب على التشبيه بالمفعول ، وأنيبت أل عن الضمير ، والذفرى مفرد قائم مقام التثنية ، إذ للناقة ذفريان لا ذفرى واحدة .

(إذا) ظرف لنضاخة .

(عرقت) بكسر الراء ، من باب طرب ، أي أنها إذا عرقت تنضح ذافرها بالعرق ، وكأنه يصفها بشدة جهد نفسها في السير حتى يصير العرق يسيل من ذافريها .

---

(١) سورة الرحمن الآية : ٦٦ .

(عرضتها) مبتدأ ومضاف إليه ، أي همتها .

(طامس) اسم فاعل من طمس الطريق إذا درس وانمحت أعلامه ، وهو نعت لمحذوف هو الخبر على تقدير مضاف ، أي همتها سلوك طريق طامس الأعلام ، وفي المختار : الطموس الدروس والانمحاء ، وقد طمس الطريق ، من باب دخل وجلس ، وطمسه غيره ، من باب ضرب ، فهو متعد ولازم [(١)]، أ هـ .

و(الأعلام) جمع علم ، وهي العلامات .

(مجهول) صفة لطامس مؤكدة ؛ لأن كل طامس مجهول .

ومعنى البيت أن هذه الناقة لها اهتمام بالمسير ، ومعرفة بالطريق المجهولة التي لا تدرك ، وذلك أنه وصفها فيه بوصفين ، الوصف الأول كثرة العرق من ذفريها ، والعرق لا يكون إلا مع اشتداد في السير واهتمام به ، خصوصاً مع ما تقدم من وصفها بالقوة والصلابة ؛ لأن العرق مع القوة لا يكون إلا من كثرة الكر وشدة السير ، وناهيك عما وصف به ذفريها من النضخ الذي هو في غاية الكثرة على ما تقدم تفسيره ، الوصف الثاني المعرفة بالطريق الطامس الأعلام ، الذاهب الآثار ، لكثرة أسفارها وسلوكها المفازات ، وهذا وصف شريف من أوصاف الإبل ، فربما ضل الراكب عن الطريق لنوم أو غيره فتذهب عليه معرفة الطريق فيهلك ، فإذا كانت ناقته لها دراية بمعرفة الطريق نجت به من تلك المفازة وخلصته من المهالك .

---

(١) ينظر : مختار الصحاح ص ١٩٢ لمحمد بن أبي بكر الرازي ، تحقيق يوسف الشيخ محمد، الناشر : المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، الطبعة الخامسة ١٩٩٩م .

تَرْمِي الغُيُوبَ بِعَيْنَيْ مُفْرِدٍ لَهِقٍ ∴

إذا تَوقّدَتِ الحزازوالمِيلُ

(ترمي الغيوب) أي ترمي تلك الناقة الغيوب ، والغيوب بضم الغين والياء وبعد الواو باء موحدة جمع غيب ، كفلوس جمع فلس ، أو جمع غائب ، كشهود جمع شاهد ، والمراد آثار الطريق التي غابت معالمها عن العيون وخفيت عن الأبصار ، والمراد برمي الغيوب إيقاع النظر عليها بسرعة ، فإنه يشبه الرمي في سرعة الوقوع على المحل .

وقوله (بعيني مفرد) أي ترمي الغيوب بعينين مثل عيني مفرد ، وهو الثور الوحشي الذي انفرد عن أنيسته ، وغلب عليه وصف المفرد كما الأغن على وصف الظبي ، فمتى قيل[١] مفرداً انصرف[٢] للثور الوحشي .

(لهق) بفتح الهاء وكسرها ، وهو الأبيض، وصف الثور بكونه أبيض .

(إذا) ظرف لترمي .

(توقدت) المراد بالتوقد هنا اشتداد الحر ، تشبيهاً له بتوقد النار . (الحزاز) بكسر الحاء وفتح الزاي وبعد الألف زاي أيضا ، جمع حزيز ، بحاء مهملة مفتوحة ، وزايين بينهما ياء مثناة تحت ، الغليظ الصلب من الأرض ، ويجمع في القلة على أحِزَّة .

و (الميل) بكسر الميم ، جمع (ميلا) بفتحها ، وهي ما تعقد من الرمل وتراكم .

---

(١) في م : قيد .
(٢) في م : نصر .

ومعنى البيت أن هذه الناقة إذا اشتد الحر وتوقدت الرمال والأمكنة الصلبة بحر الهواجر وضعفت العيون لشدة تأثير الشمس كانت حينئذ في غاية حدة البصر لمعرفة الطريق الدارسة والآثار .

وذلك أنه لما ذكر في البيت الذي قبله أن همتها الطريق الطامس الأعلام المجهول المسالك بين في هذا البيت وجه اهتمامها بذلك ، فشبهها بالثور الوحشي الذي قد ألف البراري والفلوات وخبرها بكثرة مروره(١) فيها ، واعتاد الصبر على شدة الحر ، فلم يكن الحر يقدح في بصرها ، ولم يؤثر في عينها ، بل كانت همتها على ما هي عليه من استخراج المغيبات في الطريق ، وخفيات المسالك ، حتى أنها بمجرد رمي بصرها إلى الأرض تدرك الطريق وتبين السبل ، فما ظنك بها في غير هذه الحالة ؟! .

فإن قيل : لم خص الثور الوحشي بالتشبيه به في حدة البصر دون غيره من الحيوانات ، ولم خصه بذلك في حال تفرده دون غيره ؟ فالجواب أن الثور الوحشي من أحد الوحوش نظرا ، وإذا انفرد عن أنيسته يكثر حينئذ تحديقه للنظر، ويقوى نشاطه وخفته .

فإن قيل : لم خصه بالأبيض ولا مدخل للون في تشبيه الناقة بالثور في حدة البصر ؟ فالجواب أن ذلك لمعنى آخر غير تحديق النظر وحدته ، وهو الحسن، لأن عين البقر الوحشي في غاية السواد ، فإذا كان الثور منها مع سواد عينيه أبيض يكون في غاية الحسن .

ضَخْمٌ مُقَلَّدُها ، عبلٌ مُقَيَّدُها ∴ في خَلْقِها، عن بَناتِ الفَحْل تفضِيل

(ضخم مقلدها) يجوز فيه الرفع والنصب والجر ، فالرفع على أن يكون خبراً لهي مضمرة ، أو صفة لعذافرة ، أو مقلدها مبتدأ ومضاف إليه ، وضخم

(١) في م : مرورها .

خبر مقدم ، والنصب على إضمار أمدح ، أو على أنه حال من عـذافرة ، والجـر على أنه صفة لنضاخة على لفظها ، أو لعذافرة على معناها ، إذ المعنى : غيـر عذافرة ، يقال : ما جاءني إلا زيد وعمرو بالخفض ، أجازه ابن مالك وجماعة ، والضخم وصف من ضخم بضم الخاء ، ضخماً بفتح الضاد وكسرها ، مثل غلـظ وزناً ومعنى ، والمقلد موضع القلادة من العنق ، والمراد وصف الناقـة بغلـظ العنق ، وقد عيب عليه ذلك .

قال الأصمعي(١) : وهذا خطأ في الوصف ، وإنما خير النجائب مـا يـدق مذبحه ، وقد قال أبو هلال العسكري : من خطأ الوصف قول كعب بـن زهيـر : ضخم مقلدها ؛ لأن النجائب توصف بدقة المذبح .

وقد كرر هذا الوصف ، حيث قال في البيت بعده : غلبـاء ، علـى مـا سيأتي من أن غلباء معناه عظيمة العنق ، كذا ذكره ابن هشام .

وفيه أن ضخامة كل نجيبة بحسب ما يناسبها من طولها وعرضها ، على أن الضخم يمكن تفسيره بالعظيم في حد ذاته وحسن صفاته .

(عبل) كضخم وزناً ومعنى ، ويروى : فعم ، بفتح الفاء وإسكان العـين المهملة ، وهو كعبل وزناً ومعنى ، كذا قال ابن هشام ، وفسره الفاضل(٢) بممتلئ.

---

(١) عبد الملك بن قريب بن علي بن أصمع الباهلي ، أبو سعيد الأصمعي، راوية العرب، وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان ، ولد في البصرة سنة ١٢٢هـ وتوفي بها سنة ٢١٦هـ (ينظر : تاريخ بغداد ١٠/٤١٠)

(٢) أغلب الظن أنه يقصد القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي بن السعيد اللخمـي، وزيـر صلاح الدين الأيوبي ، من أئمة الكتّاب ولد بعسقلان بفلسطين سنة ٥٢٩هـ وتـوفي فـي القاهرة سنة ٥٩٦هـ (ينظر : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهر لابن تغرى بـردى ٦/ ١٥٦ الناشر : وزارة الثقافة ، مصر) .

وقوله (مقيدها) بفتح التحتية المشددة ، أي موضع القيد منها ، يعني أن قوائمها غليظة ؛ لأنها إذا كانت كذلك كانت أقوى على السير ، والجملتان صفتان لعذافرة ، وكذا قوله (في خلقها) بفتح أوله ، أي في خلقتها وفطرتها .

(عن بنات الفحل) أي الإناث من الإبل ، متعلق بقوله : تفضيل ، على أن عن بمعنى على ، وقيل حال من ضمير خلقها ، أي في خلق الله إياها متميزة ومتباينة عن بنات الفحل تفضيل لها عن سائر النوق في الهيئة والقوة ، وهو مبتدأ ، وسوغه تقدم الخبر ، أي في خلقها ، أو الوصف المستفاد من تنوين التعظيم ، أي تفضيل جليل فيه تبجيل

ومعنى البيت أن هذه الناقة في غاية القوة والضخامة والحسن على ما يقتضيه تفسير كلامه ، وذلك أنه وصفها بثلاثة أوصاف ، الوصف الأول ضخامة المقلد ، وقد تقدم أن الظاهر أن المراد به جميع العنق ، وضخامة العنق دليل ضخامة جميع هامتها وعظمها ، الوصف الثاني عبالة المقيد ، على ما تقدم تفسيره ، وغلظ ذلك منها مؤذن بقوتها وصبرها على السير وطاقتها على ثقل الحمل ، الوصف الثالث وهو تفضيلها على غيرها من الإبل ، فإن حملناه على عظم الخلقة وكبر الهامة كان في معنى ما تقدم من ضخامة المقلد وعبالة المقيد ، ويكون بين أجزائها مناسبة ، وهو من صفات المدح أيضا ، بخلاف ما إذا كان بعض أجزائها لا يناسب بعضاً في الضخامة والرقة ، فإنه مما يذم ، وإن حملناه على حسن التكوين كانت قد جمعت بين ذلك وبين القوة في قوله : عبل مقيدها .. كما تقدم ، وإن حملناه على عظم الخلقة وحسن التكوين جميعاً كانت قد جمعت بين القوة وعظم الخلق وحسن التكوين ، والله أعلم .

غَلباءُ ، وجْناءُ ، عُلكومٌ ، مُذكَّرَةٌ ، ..

في دَفّها سَعَةٌ ، قُدّامُها مِيلُ

(غلباء) أي غليظة الرقبة ، والذكر أغلب ، وجمعها غُلب ، ويكون في الآدمي أيضا ، وقيل هو قصر العنق ، وقيل قصر وميل ، والظاهر أنه مشترك بين الغلظ والميلان ، وقد يستعار لغلظ غير العنق ، قال تعالى : " وَحَدَائِقَ غُلْبًا "(١) أي غليظة الأشجار ، وفعل الأغلب : غلِب بالكسر ، يقلب بالفتح ، غَلَباً بفتحتين ، وفعل الغالب : غلب بالفتح ، يغلب بالكسر ، غلبة وغلبا ، قال تعالى : "وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ "(٢).

(وجناء) بفتح الواو وإسكان الجيم وبعد النون ألف ممدودة ، وهو محتمل لمعنيين ، أحدهما أن يريد بها العظيمة الوجنتين ، وهما طرفا الخد ، والثاني أن يريد بها الصلبة ، أخذاً من الرجلين(٣) وهو ما صلب من الأرض ، وفي المختار : الوجناء الناقة الشديدة ، وقيل العظيمة الوجنتين ، والوجنة ما ارتفع من الخدين (٤).

(علكوم) بضم العين وإسكان اللام ، أي شديدة ، وهي من الأوصاف المختصة بالإبل ، ويستوي فيها المذكر والمؤنث .

(مذكرة) بالذال وفتح الكاف المشددة ، أي هي في عظم خلقتها كالذكر من الأباعر

---

(١) سورة عبس الآية : ٣٠ .
(٢) سورة الروم الآية : ٣ .
(٣) هكذا في م ، وفي ر : الوجهين ، وكلاهما خطأ ، والصواب : الوجين ، وهو الأرض الغليظة الصلبة (ينظر : الصحاح للجوهري ٦ / ٢٢١٢ تحقيق أحمد عبد الغفور عطا ، ط : دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الرابعة ١٩٨٧م) .
(٤) ينظر : مختار الصحاح ص ٣٣٤ .

وقوله (في دفها سعة) الدف بفتح الدال وتشديد الفاء ، الجنب ، والمراد جنباها جميعا ، وفي القاموس : الدف ، بالفتح ، الجنب من كل شيء ، أو صفحته[١] ، والسعة ، بفتح السين ، ضد الضيق .

وقوله : (قدامها ميل) ضد الخلف ، والميل ، بكسر الميم ، مد البصر ، وهو مقدر بالذراع بأربعة آلاف ذراع بالهاشمي ، وقوله : قدامها يحتمل معنيين ، أحدهما أن يريد به طول العنق ، وأن عنقها مد ميل ، للمبالغة في طوله ، وعليه اقتصر ابن هشام في شرحه ، الثاني أن يريد به سعة الخطوة ، وأن مقدار خطوتها مد البصر .

ومعنى البيت أنها مشتملة على القوة والصلابة ولذلك وصفها بستة أوصاف ، **الأول** : غلظ العنق ، وهو المعني بقوله غلباء ، على ما تقدم ذكره ، وقد تقدم في البيت الذي قبله ما يوافقه من تفسير قوله : ضخم مقلدها ، فيكون هذا الوصف قد تكرر معه في بيتين متواليين ، وهو أخف من تخصيص المقلد بموضع القلادة على ما تقدم ؛ إذ النجائب إنما توصف بدقة المذبح .

الوصف الثاني : عظم الوجنتين ، وهو المراد بالوجناء على ما تقدم ، وهو من الأوصاف المحمودة في الإبل ، بخلاف الخيل فإنه يحمد فيها قلة لحم الخدين ، فإن حمل لفظ الوجناء على الصلبة – وهو التفسير الثاني فيها – كان ذلك موافقاً لأحد أمرين في العذافرة في البيت الرابع عشر ، وهو أن المراد بها الصلبة العظيمة على ما تقدم .

الوصف الثالث : كونها شديدة ، وهو المراد بالعلكوم ، وقد تكرر وصفها به ، فلا شك أنه أعلى أوصافها .

---

(١) ينظر : القاموس المحيط ص ٨١٠ .

الوصف الرابع : كونها عظيمة الخلقة ، وهو المعني بالمذكرة ، وقد تكرر الوصف به أيضا ، على أنه قد يراد بالمذكرة ما هو أعم من عظم الخلقة ، فقد قال بعض الحكماء إن المذكر من الإبل أحسن خلقاً وأقل عبثاً وأعز نفساً وأكرم عهداً وأدوم وداً وأصبر على المكروه النازل به من الأنثى .

الوصف الخامس : كونها واسعة الجنبين ، وهو مؤكد للوصف الرابع لاستلزامه لعظم الخلقة .

الوصف السادس : طول العنق ، وهو المراد بقوله : قدامها ميل ، على أحد التفسيرين فيه ، وفيه من تمام حسنها ما لا يخفى ، ويكون قد وصفها في أول البيت بغلظ العنق ، وفي آخره بطوله ، فأكمل لها الوصفين جميعا ، وإن حملنا قوله : قدامها ميل على سعة الخطوة كان وصفاً لها بسرعة السير الذي هو المقصود الأعظم ، والله أعلم .

وَجِلْدُها مِنْ أَطُومٍ لا يُؤَيِّسُهُ ∴ طِلْحٌ ، بضَحِيَةِ المَتْنَينِ ، مَهزُول

(وجلدها) أي جلد هذه الناقة ، قوي شديد الملاسة لسمنها وضخامتها ، فالقراد المهزول من الجوع لا ينبت عليها ولا يلتزق بها .

وقوله : (من أطوم) جزم التبريزي(١) بأن الأطوم الزرافة ، وأن الجامع بينهما الملاسة ، وعلى هذا فهو بفتح الهمزة ، ولا يتعين ما قاله ، بل يجوز أن يريد به السلحفاة البحرية ، وهذا أولى لوجهين ، أحدهما أن استعمال الأطوم بهذا

---

(١) يحيى بن علي بن محمد الشيبانيّ التبريزي ، أبو زكريا ، من أئمة اللغة والأدب ، ولد في تبريز سنة ٤٢١هـ ونشأ ببغداد وتوفي بها سنة ٥٠٢هـ (ينظر : وفيات الأعيان ٢/٢٣٣)

المعنى كثير ، بخلاف استعماله بمعنى الزرافة فإنه قليل ، حتى أن الجوهري[١] وصاحب المحكم [٢]وكثيراً من أهل اللغة لم يذكروه ، والثاني أن الملاسة في[٣] جلد السلحفاة أكثر ، فالتشبيه بها أبلغ ، وفي المحكم : الأطوم سلحفاة بحرية غليظة الجلد ، وقبل سمكة غليظة الجلد في البحر يشبه بها جلد البعير الأملس ، ويتخذ منها الخفاف للجمالين ، ويخصف بها النعال [٤]، والتقدير : وجلدها من جلد كجلد أطوم ، وجزم بعضهم بأن الأطوم في البيت بضمتين ، وهي الحصون ، وقال إنه شبه جلدها بالحصون لقوته . ا هـ ، ولا يخفى ما في تشبيه الجلد بالحصون من البعد ، ومما يزيده بعداً أنه قال : من أطوم ، ولم يقل شبه أطوم ، ولا يحسن أن يقال إن جلدها من حصن أو قصر ، ومفرد الأطوم بهذا المعنى أُطُم، بضمتين ، وهو الحصن المبني بالحجارة ، وقيل : كل بيت مربع مسطح ، وجمعه في القلة آطام ، وفي الكثرة أطوم ، وقال ابن الأعرابي : الأطوم القصور

وقوله (لا يؤيسه) بضم الياء المثناة من تحت وفتح الهمزة وتشديد الياء المثناة من تحت المكسورة وضم السين ، أي ما يذلله ويؤثر فيه ، يقال : آس أيسا ، مثل سار سيرا ، بمعنى لان وذل ، وأيسه تأييسا ، أي لينه .

---

(١) إسماعيل بن حماد الجوهري ، أبو نصر ، أول من حاول الطيران ومات في سبيله ، لغويّ، من الأئمة ، ولد في فاراب ومات في نيسابور سنة ٤٥٥هـ (ينظر : النجوم الزاهرة ٢٠٧/٤)

(٢) يقصد أبا الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المتوفى سنة ٤٥٨هـ .

(٣) في ر : أن ملاسة جلد .... .

(٤) ينظر : المحكم والمحيط الأعظم لابن سيدة ٢١٠/٩ تحقيق عبد الحميد هنداوي ، ط : دار الكتب العلمية بيروت ، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م .

(صلح) بكسر الطاء وإسكان اللام وبعدها حاء مهملة ، فاعل يؤيسه ، وهو القراد ، ويقال أيضا : طليح ، وجملة لا يؤيسه (١) طلح إما خبر ثان لجلدها أو حال من ضمير الظرف ، أو مستأنفة لبيان جهة التشبيه .

وقوله (بضاحية) الباء بمعنى في أو على ، والإضافة على معنى اللام ، وضاحية كل شيء ناحيته البارزة للشمس ، وهي اسم فاعل من ضحِيت بالكسر ، تضحى بالفتح ، إذا برزت للشمس ، قال تعالى : " إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى (٢) أي لا تبرز للشمس .

(المتنين) تثنية متن ، بفتح الميم وسكون المثناه من فوق ، يريد بهما متني ظهرها ، أي ما (اكتسب) صلبها عن يمين وشمال من عصب ولحم ، والمتن يذكر ويؤنث ، وأل في المتنين خلف عن الضمير ، وضاحية المتنين مثل حسنة الوجه ، والمراد ما برز من متنيها للشمس .

وقوله (مهزول) صفة لطلح .

ومعنى البيت أن هذه الناقة في غاية الصلابة لسمنها وضخامتها ، بحيث أن القراد المهزول من الجوع لا يؤثر في جلدها ولا يلزق به ، وذلك أنه إن فسرنا الأطوم الذي جعل جلدها منه بالزرافة أو السلحفاة البحرية أو السمكة الغليظة الجلد كان وصفاً بأغلظ جلد وأصلبه ، وإن فسرناه بالحصون المبنية بالحجارة كان أبلغ في الصلابة ، ثم أكد ذلك المعنى من وجهين ، الأول أن جلد ظهرها في هذه الحالة بارز للشمس ، وهو المراد بالضاحية ، على ما تقدم ذكره ، والمعنى فيه أن القراد في الشمس تقوى همته ، وتهيج حركته واشتداده على امتصاص الدم ، بخلاف حالة البرد فإنه تضعف فيه قوته ، فإذا عجز عن التأثير فيها في حالة بروزها للشمس فلأن يضعف في البرد أولى ، الوجه الثاني أنه لا

(١) في م : لا يريسه .
(٢) سورة طه الآية : ١١٩ .

يستطيع التأثير في جلدها مع شدة الجوع التي يكون فيها أشد انهماكاً على امتصاص الدم وأكثر ولوعا .

حَرْفٌ أبوها أَخُوهَا من مُهَجَّنَةٍ ∴

وَعَمُّها خَالُها ، قَوداءُ ، شِمليل

(حرف) محتمل لإعرابين ، كونه خبراً لمحذوف ، أي هي ، وكونه صفة لعذافرة ، ومحتمل لمعنيين ، إرادة حرف الجبل ، وهو القطعة الخارجة منه ، أي أنها مثله في القوة والصلابة ، وإرادة حرف الخط ، أي أنها مثله في الضمور[١] والدقة ، لكن هذا الاحتمال ينافي ما تقدم من وصفها بعظم الخلقة وسعة الجنب وغير ذلك ، وجعلها نفس الحرف مبالغة في معنى التشبيه ، ويحتمل إضمار الكاف الاسمية أو كلمةُ مثل ، ولا يحسن أن تضمر الكاف الحرفية لضعف حرف الجر ، بخلاف حذف المضاف .

وقوله (أخوها ــ أبوها ــ وعمها ــ خالها) محتمل لمعنيين ، أحدهما التشبيه ، أي أن أخاها يشبه أباها في الكرم ، وأن عمها يشبه خالها في ذلك ، والثاني التحقيق ، وأنها من إبل كرام ينزو بعضها على بعض حفظاً للنوع .

وصورته ــ فيما إذا كان أخوها أباها ــ أن فحلاً ضرب بنته فأتت ببعيرين، فضربها أحدهما فأتت بهذه الناقة .

وصورته فيما إذا كان عمها خالَها أن يضرب أبو أبيها أمَّ أمها ، فتأتي ببعير ، فذلك البعير عمها ؛ لأنه أخو أبيها لأبيه ، وخالها ؛ لأنه أخو أمها لأمه ، فقوله : أخوها أبوها وعمها خالها ، كناية عن كمال قوتها وصلابتها وغاية كرمها ونجابتها ، إذ ذاك من لوازم إنزاء البعير على النوق القريبة منه كالأم

(١) في م : الصخور .

والبنت ، فإن البهائم إلى قرابتها أشهى منها إلى غيرهن ، بخلاف الإنسان ، ومتى كانت الشهوة أكمل كان الولد أقوى .

والمعنى فيه أن الشهوة إنما تتحرك وتثور بقوة الإحساس وبالنظر واللمس ، وإنما يقوى الإحساس بالأمر الجديد الغريب ، أما المعهود الذي دام النظر إليه مدة فإنه يضعف الحس عن تمام إدراكه والتأثر به ، فلا تثور الشهوة ، وهذا المعنى مفقود في البهائم ؛ فإن حركتها مجرد شهوة من غير عقل ، فكان ثبوتها في القريب وغيره على حد واحد .

وقوله (من مهجنة) صفة حرف ، ومن بيانية ، أي هي ناقة مهجنة ، أو تبعيضية ، أي من نياق مهجنة ، أي مكرمة ، ومهجنة بضم الميم وفتح الهاء وتشديد الجيم المفتوحة وفتح النون ، الكريمة الأبوين من الإبل ، وهو ما يتمدح به هنا ، وأصل الهجنة غلظ الخلق ، كغلظ البراذين .

وهاهنا تنبيه على أمرين ، أحدهما أن التهجين مدح في الإبل وذم في الآدميين ؛ لأن معناه في الإبل كرم الأبوين ، كما تقدم ، وفي الآدميين أن يكون الأب عربياً والأم أمة ، يقال عنه : رجل هجين ، وإن كان الأمر بالعكس قيل : رجل مُقَرَّفٌ وفَلَنْقَس ، بوزن سفرجل ، أوله فاء ورابعه قاف ، والثاني أنَّ تقارب الأنساب مدح في الإبل ؛ لأنه إنما يكون في الكرام ، بأن ينزو بعضها على بعض حفظاً لنوعها ، كما قدمنا ، وهو ذم في الناس لأنه فيهم سبب للضعف(١) كما تقدم.

وقوله (قوداء) أي طويلة الظهر والعنق ، والذكر أقود ، وجمعها قود .

---

(١) في م : للضعيف .

(شمليل) الشمليل والشملال بكسر أولهما وسكون ثانيهما ، والشملة بكسرهما وتشديد الثالث ، الخفيفة السريعة ، يقال : شملل أي أسرع ، واللام زائدة للإلحاق بدحرج ، ولهذا لم تدغم لئلا تفوت موازاته للملحق به .

ومعنى البيت أن هذه الناقة مع كرم أصلها خالصة النسب ، لم يشبها شائبة في نسبها ، ولا نزعها عرق في كرمها .

واعلم أنه قد صدر البيت بقوله : حرف ، وقد تقدم أن المراد بالحرف الصلبة القوية ، ثم أتبعه بذكر تداخل نسبها ، إشارة إلى أن مثل ذلك يُؤَثِّرُ القوة في الإبل ، إلا أن مثل ذلك إذا وقع في الآدميين أثر الضعف ونحافة البدن ، ثم إنه لما أثبت للناقة كرم الأصل بقوله : من مهجنة ، وخلوصَ النسب بقوله : أخوها أبوها وعمها خالها رتب ذلك على صفتين من صفات كرام الإبل ، الصفة الأولى طول الظهر والعنق ، وهو المعني بقوله : قوداء ، على ما تقدم تفسيره ، وهو من أوصاف الإبل التي يتمدح بها ، الصفة الثانية الخفة والسرعة ، وهو المراد بقوله : شمليل ، وهو من أحمد الأوصاف التي فيها ، والله أعلم .

يمشي القُرادُ عَلَيْها، ثُمّ يُزلِقُهُ ∴ مِنْهَا لَبانٌ ، وأَقرابٌ زَهالِيلُ

(يمشي) فعل مضارع مرفوع بضمة مقدرة على الياء ، والجملة حال ، أو صفة ، أو مستأنفة .

و (القراد) فاعل ، وهو واحد القردان ، كغلام وغلمان ، وهو حيوان معروف يلزق بالدابة .

(عليها) جار ومجرور متعلق بيمشي .

(ثم) حرف عطف ، وهي هنا للتعقيب سريعاً لا للتراخي ؛ إذ المراد أنها لملاستها يزلق عنها القراد ، ولا يحسن أن يخبر عنها بتراخي[١] سقوطه عنها بل بقربه وبسرعته

(يزلقه) فعل مضارع بضم الياء وكسر اللام ، وهو من الإزلاق[٢] وهو إفعال من الزلق ، وهو نقيض ثبات القدم .

(منها) جار ومجرور متعلق بيزلقه ، ومن لابتداء الغاية ، أو بمعنى عن، كقوله تعالى : " فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ "[٣] ، ويؤيده أنه روي : عنها.... .

(لبان) بفتح اللام وكسرها وضمها ، والمعنى مختلف ، فالمفتوح هو الصدر ، وقيل وسطه ، وقيل ما بين اليدين ، يكون للإنسان وغيره ، وهو المعني في البيت ، والمكسور هو الرضاع ، يقال : هو أخوه بلبان أمه ، ولا يقال : بلبن أمه ، والمضموم هو الصمغ المسمى بالكندر .

و(أقراب) معطوف على لبان ، والأقراب الخواصر ، مفردها قرب ، كأبعاد وبعد ، وفيه إقامة الجمع مقام المثنى ، كقوله تعالى : " فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا" [٤]، وسُمع المفرد بضمتين كما سمع في عسر ويسر .

(زهاليل) صفة للبان وأقراب ، وهي المُلس ، واحدها زهلول ، بوزن عصفور ، وهو الشيء الأملس .

---

(١) في م : بالتراخي .
(٢) في م : الإزلاقات .
(٣) سورة الزمر الآية : ٢٢ .
(٤) سورة التحريم الآية : ٤ .

ومعنى البيت أن جلد هذه الناقة في غاية الملاسة لسمنها ، بحيث أن القراد لا يثبت عليها ، بل إذا وقع على جسدها زلق وسقط عنه ، وذلك مما يستحسن في أوصاف الإبل .

وهذا البيت في الحقيقة مؤكد لقوله : وجلدها من أطوم ..... في البيت المتقدم ، قال ابن هشام : ولو ذكره إلى جنبه لكان أولى ؛ وذلك أنه في ذلك البيت وصف جلدها بالصلابة بحيث أن الطلح الذي هو القراد لا يؤثر فيه لصلابته ، وهذا قدر زائد على ذلك ، وهو ملاسة جلدها ، بحيث أن القراد يزلق عنه .

فإن قيل : لم خص الصدر والخواصر بإزلاق القراد دون غيرهما من سائر بدنها ؟ فالجواب أن هذين الموضعين أحسن ما يكون في الناقة لمماستهما الأرض إذا بركت ، فإذا كان القراد يزلق عنهما لملامستهما فلأن يزلق عن غيرهما من باب أولى .

عيرانةٌ قُذِفَتْ بالنحض عن عُرُضٍ ∴

مِرْفَقُها عن بنات الزَّور مَفتول

(عيرانة) خبر لمبتدأ محذوف ، أي هي ، وهو بفتح العين المهملة ثم ياء ساكنة وبعد الألف نون مفتوحة ثم تاء تأنيث ، أي ناقة شبيهة بعير الوحش ، أي حماره في سرعتها ونشاطها وصلابتها .

(قذفت) بصيغة المجهول ، أي رميت .

(بالنخض) بنون مفتوحة فحاء مهملة ساكنة وضاد معجمة ، أي اللحم ، وروي : قذفت ، بتشديد الذال ، وقذفت باللحم .

(عن عرض) بضمتين ، أو بضم فسكون ، أي جانب ، والمعنى : رميت باللحم من كل جانب من جوانبها ، بإرادة العموم المستفادة من النكرة المثبتة بقرينة سياق المدح .

(مرفقها) مبتدأ خبره مفتول .

و (عن بنات الزور) أي زورها ، متعلق به ، والمرفق بكسر الميم وفتح الفاء ، وعكسه لغتان ، وهو مما قام فيه المفرد مقام المثنى ؛ لأن لها في الحقيقة مرفقين ، والزور بفتح الزاي ، أعلى الصدر ، وقيل جميع الصدر ، وقيل وسطه ، فهو الذي عبر عنه في البيت السابق باللبان ، وفي القاموس : الزور وسط الصدر ، وما ارتفع منه إلى الكتفين ، أو ملتقى أطراف عظام الصدر حيث اجتمعت (١)، أو بنات ما يتصل به مما حوله من الأضلاع وغيرها .

(مفتول) من الفتل بالفاء ، وهو الصرف والانحراف ، وفي القاموس : من فتله يفتله ، لواه (٢)، وفتل وجهه عنهم ، صرفه ، أي هي مصونة عن الضغط والزلق لبعد مرفقها عن أضلاعها ، فلا يصطك بها لخفتها ونشاطها .

ومعنى البيت أن هذه الناقة تشتمل على ثلاث صفات تكون في الإبل محمودة **الصفة الأولى** : الصلابة ، بحيث أنها تشابه حمار الوحش في قوتها وصلابتها ، وذلك أن حمار الوحش من أشد الحيوانات قوة وأصلبها جسدا ، وقد تكرر له وصف الناقة بالصلابة في غير موضع ، إلا أنه بألفاظ مختلفة ، فحسن التكرار ، وقد يريد بذلك التأكيد ، فإن هذا الوصف هو المقصد الأعظم من الإبل ، على ما تقدم ذكره قبل ذلك .

الصفة الثانية : السمن ، وهو المعني بقوله : عن عرض ..... على ما تقدم تفسيره ، وقد تكرر له هذا الوصف أيضاً بألفاظ مختلفة ، والمعنى بتكراره أنه قد وصفها بالسرعة والخفة وجهد نفسها في السير ، فإذا كانت خفيفة في

(١) ينظر : القاموس المحيط ص ٤٠٢ .

(٢) ينظر : القاموس المحيط ١٠٤١ .

السمن ، وسمنها لا يتأثر ولا ينقص مع طول السير وقوته كانت في غاية النفاسة التي تكون خارقة للعادة .

الصفة الثالثة : تجافي مرفقيها عما حول زورها ، وهو المعني بقوله : مرفقها عن بنات الزور مفتول.

والمعنى فيه أنه إذا كان مرفقها متجافياً عن صدرها لا يصيبها ضاغط ولا جار(١) فيكون أسلم لها في السير ، وأبعد لها عن العطب ، والله أعلم .

كأنّما فَاتَ عينيْها وَمَذْبَحَها، ∴

مِنْ خَطْمِها وَمِنَ اللَّحْيَيْنِ بِرْطيل

(كأن) حرف تشبيه ينصب الاسم ويرفع الخبر .

و (ما) اسمها ، وهي موصولة .

و (فات) فعل ماض من الفوات ، أي تقدم ، قال الأصمعي : الوجه كله... (٢) .... العينين إلا الجبهة فإنها تكون فوقهما أو خلفهما ، والفاعل ضمير يعود على الموصول ، والجملة صلة ، والعائد ضميرها .

(عينيها) مفعول .

و (مذبحها) معطوف على عينيها ، والمذبح والمنحر واحد .

(من خطمها) جار ومجرور متعلق بمحذوف ، أي كائناً من خطمها ، ومن لبيان الجنس ، والمبين هو الموصول ، أو عائدُه المستتر ، والخطم بفتح

(١) هكذا في م وأيضاً في ر ، ولم أفهم المقصود ، ولعله يقصد ما يجاورها أثناء السير من الخيل والإبل ونحو ذلك .

(٢) كلمة لم أتبينها في النسختين .

الخاء المعجمة ، من كل طائر منقاره ، ومن كل دابة مقدم أنفها وفمها ، والمراد به هنا وجهها كما تقدم .

و (من اللحيين) معطوف على من خطمها ، واللحيان بفتح اللام ، العظمان اللذان عليهما الأسنان السفلى من الإنسان وغيره من بقية الحيوانات .

(برطيل) بالكسر ، خبر كأن ، وهو معول من حديد ، أو حجر مستطيل ، شبه رأسها بأحدهما في الكبر والعظم والقوة ، والحاصل أنه وصفها بكبر الرأس وعظمه وقوته وصلابته ، و فيه [إيماء][(١)] إلى فخامته وشهامته .

وفي نسخة : قاب ، بدل فات ، وهو بالقاف ، وفي آخره باء موحدة مرفوعة ، وعلى هذه النسخة فما كافّةٌ ، أي مانعة لكأن عن العمل ، وقاب الشيء قدره ، ومنه قوله تعالى : " قَابَ قَوْسَيْنِ "[(٢)] وهو مبتدأ مضاف إلى عينيها ، ومذبحها ، ومن خطمها ومن اللحيين ، حالان من قاب ، عينيها ومذبحها على اللف والنشر المرتب ، ومن للابتداء ، والعامل فيها معنى الفعل المستفاد من كأن، وإضافة القاب لأدنى ملابسة ، والمراد قاب وجهها المنتهي إلى عينيها ، وقاب عنقها المنتهي إلى مذبحها ، وبرطيل خبر المبتدأ بحذف مضاف ، أي قدر برطيل، يعني كأن قدر وجهها المنتهي إلى عينيها مبتدأ من خطمها قدر معول من حديد ، وقدر عنقها المنتهي إلى مذبحها مبتدأ من اللحيين قدر حجر طويل .

والمعنى أن وجهها من مقدم الأنف إلى العينين كالمعول في الصورة في الجملة وفي الصلابة والقوة ، وكذا عنقها من المنخر إلى اللحيين كحجر طويل فيما ذكر من وجه الشبه .

---

(١) ساقط من م .
(٢) سورة النجم الآية : ٩ .

تُمِرّ مِثْلَ عَسِيبِ النّخْلِ ، ذا خُصَلٍ ∴ في غـارزٍ لَمْ تَخَوَّنْهُ الأحَـالِيلُ

(تمر) بضم المثناه فوق ، مضارع أمرّ ، منقول بـالهمزة مـن مـر ، وفاعله ضمير الناقة .

و (مثل) صفة لمحذوف ، أي ذنباً مثل عسيب النخل ، وهو جريده الذي يكون عليه الخوص ، بقرينة قوله : ذا خصل .

و (ذا) صفة ثانية ، أو هو المفعول ومثل حال منه ، وكانت في الأصـل صفة له ثم تقدمت عليه .

و (الخصل) جمع خصلة ، وهي اللفيفة من الشعر .

(في غارز) متعلق بتمر ، وفي بمعنى على ، كقوله تعالى : " وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ " (١)وهو بغين معجمة ثم راء مكسورة فزاي ، من غرزت الناقة بالفتح ، تغرز بالضم ، إذا قل لبنها ، والمراد به هنا الضرع .

وقوله (لم تخونه) بفتح التاء والخاء المعجمة والواو المشددة ، حـذف منه إحدى التـائين ، أي لـم تنقصـه الأحاليـل لعـدم وجـود اللـبن فيـه . و (الأحاليل) بفتح الهمزة والحاء المهملة ، جمع إحليل بالكسر ، وهو مخـرج اللبن من الضرع ، وهو المراد هنا ، ويطلق على مخرج البول أيضا ، والمعنـى أنها حامل لا تحلب ، وذلك أقوى لها على السير ، فنفى الضعف عنها بنفي اللبن عن ضرعها .

ومعنى البيت أن هذه الناقة تشتمل على ثـلاث صـفات مـن الصـفات المحمودة في الإبل ، الصفة الأولى غلظ ذنبها وطوله ، المستفاد ذلك من قولـه :

(١) سورة طه الآية : ٧١ .

مثل عسيب النخل.... على ما تقدم بيانه ، وهو من الصفات المحمودة التي تكون في الإبل ، الصفة الثانية كونه كثير الشعر ، وهي المرادة من قوله : ذا خصل ، وهو من الصفات المحمودة فيها أيضا ، الصفة الثالثة كونها حاملاً لم تحلب اللبن، لأن ذلك يكون أقوى لها في السير ، وهو من الصفات المحمودة أيضا .

قَنْواءُ في حُرّتَيْها ، للبَصِيرِ بها ∴ عِتْقٌ مُبِينٌ ، وفي الخَدّين تَسْهِيلُ

(قنواء في حرتيها) القنو بفتح القاف وإسكان النون وبالمد ، هي المحدودبة الأنف ، ومنه قيل للرجل أقنى إذا كان كذلك .

ويروى : وجناء ، بدل قنواء .

و (الحرتان) بضم الحاء وتشديد الراء وبعدها تاء مثناة من فوق ثم ألف ثم نون ، الأذنان ، والجار والمجرور خبر مقدم .

وقوله (للبصير بها) متعلق بمبين ، أي للعليم بتلك الناقة ، فالباء صلة البصير ، أو للرائي إياها ، فالباء زائدة .

و (عتق) مبتدأ ، أو فاعل بالظرف ، وهو بكسر العين وفتح التاء في آخره قاف ، ومعناه كرم ونجابة .

و (مبين) صفة ، أي ظاهر .

(وفي الخدين تسهيل) مبتدأ وخبر ، أي وفي خديها لين وسهولة لا خشونة ولا حزونة ، وقيل : التسهيل أن يكونا أسيلين لا ارتفاع فيهما ، أي إذا نظر البصير بالإبل إلى أذنيها وسهولة خديها بان له عتقها وكرمها .

ومعنى البيت أن هذه الناقة تشتمل على ثلاثة أوصاف :

الوصف الأول : كونها قنواء ، وقد عده في جملة الأوصاف المحمودة من الإبل ، لكن المنقول عن العرب أن القنا عيبٌ في الإبل كما هو عيب في الخيل، وإن أنشد على الرواية الأخرى وهي : وجناء ، لزم منه التكرار ؛ لتقدم هذا الوصف في البيت الثامن عشر في قوله : غلباء ، إلا أنه تقدم هناك تفسير الوجناء بمعنيين ، أحدهما الصلبة ، والثاني العظيمة الوجنتين ، فيجوز أن يكون قصد هناك معنى الصلبة ؛ لأنه هناك تكلم في عظم خلقها ، والمناسب لعظم الخلقة هو الصلابة والقوة ، وأن يكون قصد هنا العظيمة الوجنتين ، لأنه هنا تكلم في حسن الوجه والرأس من الأنف والأذنين والخدين ، فلا يلزم منه تكرار في المعنى وإن تكرر اللفظ ، وهو أولى من الوصف بما يعد عيباً في الإبل .

الوصف الثاني : حسن أذنيها ، بحيث أنه إذا تأملها من له معرفة بكرام الإبل حكم عليها بأنها من النوق العتاق الكرام الأصول ، واعلم أن المستحسن في الإبل مما يدل على كرم الناقة طول أذنيها ، والمحاسن الدالة على كرم الأصل لا يدركها إلا العالم بشأنها ، كما في الخيل .

الوصف الثالث : تسهيل خديها ، بحيث أنه لا نتوء فيها ولا ارتفاع ، وهو من الصفات المحمودة في الإبل .

فإن قيل كيف يجتمع الوصف بتسهيل الخدين مع الوصف بكونها وجناء على تفسيره بعظم الوجنتين [وهو ينافي سهولة الخدين ؟ فالجواب أنه تقدم هناك أن المراد بالوجنتين][1] طرفا الخدين[2] فيجوز أن يكون خداها في نفسهما أسيلين مسترسلين ، وطرفاهما فيهما غلظ وارتفاع ، ويكون كل منهما معدود من المحاسن ، والله أعلم .

---

(١) ساقط من م .

(٢) في م : طرف الخد .

تَخْدي على يَسَراتٍ ، وهي لاحقةٌ ، ∴

ذَوَابلٍ ، مسُّهُنّ الأرضَ تَحْلِيل

(تخدي) كترمي ، بمعجمة فمهملة ، بمعنى تسرع ، وفي القاموس : خدى البعير والفرس خدياً وخديانا ، أسرع ورج الأرض بقوائمه[1] ، ويروى بمعجمتين ، بمعنى تسترخي ، وهو أبلغ ؛ لأنها مع استرخائها في السير تلحق النوق السوابق ، فكيف لو أسرعت ؟ ، وفي القاموس : خذا يخذو خذوا ، استرخى ، وخذيت أذنه ــ كرضي ــ خِذاً ، استرخت من أصلها وانكسرت مقبلة على الوجه ، يكون في الناس والخيل والحمر خلقةً أوحدثا [2].

وقوله (على يسرات) بفتحتين ، أي قوائم خفاف ، وعلى خبرُه .

(تحليل) بالحاء المهملة ، أي شيء قليل لم يبالغ فيه ، كأنه من تحليل القسم بيسيرٍ بهذه الجملة ، أي صفة رفعها قوائمها : فلا تمس الأرض إلا تحلة القسم ، كما يحلف الإنسان على الشيء ليفعلنه فيفعل من اليسير ليتحلل به قسمه ، هذا أصله ، ثم كثر حتى قيل لكل شيء لم يبالغ فيه .

ومعنى البيت أن هذه الناقة على غاية الإسراع في سيرها ، وذلك أنه وصف قوائمها في السير بأربعة أوصاف ، الوصف الأول أنها تسير الوخد ، بالدال المهملة ، وهو من أسرع أنواع السير ، وهو المعني بقوله : تخدي ..... على ما تقدم تفسيره ، الوصف الثاني وصف قوائمها باليسرات ، الوصف الثالث الضمور والدقة ، وهو المعني بالذوابل ، وإذا كانت القوائم قليلة اللحم لم تكن رهلة ولا مسترخية ، فيكون ذلك أسرع لرفع قوائمها وبسطها ، وإن أنشد على الرواية الأخرى وهي : لاهية ، أي غافلة عن السير غير مكترثة به مع إسراعها

---

(١) ينظر : القاموس المحيط ص ١٢٧٩ .

(٢) ينظر : القاموس المحيط ص ١٢٧٩ .

فيه ، وذلك سجية لها ، فهي تفعله مع غفلتها ، الوصف الرابع سرعة رفع قوائمها عن الأرض ، وهو المعني بقوله : مسهن الأرض تحليل ، وإذا كانت قوائمها مشتملة على هذه الأوصاف كانت في غاية إسراع السير .

فإن قيل : كيف ساغ له أن يصف قوائمها بالضمور والدقة بعد قوله فيما تقدم : عبل مقيدها ، مشيراً به إلى غلظ موضع القيد منها ، وهو مستلزم لغلظ جميع القامة ؟ فالجواب أن المراد هناك غلظ العظم والعصب ، وهنا قلة اللحم ، فلا منافاة بينهما ، والله أعلم .

سُمْرُ العَجَايَاتِ يتركنَ الحصىَ زِيَماً، ∴

لم يقِهِنَّ رُؤوسَ الأكم تَنْعِيلُ

(سمر) جمع أسمر ، والسمرة لون يقرب من السواد ، وهو بالرفع خبر مبتدأ محذوف ، والتقدير : هي ، أي اليسرات سمر ، والإضافة في العجايات لفظية ، أي سمر عجاياتها ، أي عجاياتها سمر ، أي كالسمر ، والسمر من أوصاف الرماح ، أي عجاياتها كالرماح السمر .

و (العجايات) بضم العين وفتح الجيم وبعد الألف ياء مثناة من تحت وتاء مثناة من فوق ، جمع عجاية ، وهي الأعصاب المتصلة بالحافر ، وقيل لحمة متصلة بالعصب المنحدر من ركبة البعير إلى الفرسن ، والفرسن في البعير كالحافر في الدابة ، فشبه عصبها أو لحم قوائمها بالرماح لقوته وصلابته ، وفي القاموس : والعجاية بالضم عصب مركب ، فيه فصوص من عظام ، كفصوص الخاتم ، يكون عند رسغ الدابة ، أو كل عصب في يد أو رجل ، أو عصبة في باطن الوظيف[١] من الفرس والثور ، والجمع عجايا .

(١) الوظيف في الدابة والفرس : ما فَوْقَ الرُّسْغِ إلى مَفْصِلِ السّاق (تاج العروس ، مادة : وطف ٦١٦٤).

وجملة (يتركن) صف [١] يسرات ، وهو بمعنى يجعلن ، فيتعدى إلى مفعولين ، وهما الحصى زيما ، وقيل : زيماً حال من الحصى ، وهو بكسر الزاي وفتح الياء ، بوزن عنب ، المتفرق ، أي أنها لشدة وطئها الأرض تفرق الحصى عن موضعه .

وجملة (لم يقهن) صفة يسرات أيضا ، من الوقاية ، بمعنى الحفظ ، وفي بعض الروايات : لم يبقهن ، من الإبقاء .

و (رءوس الأكم) ظرف مكان منصوب بنزع الخافض بحذف مضاف ، أي : لم يقهن عن رءوس الأكم ، وهو بضم الهمزة وسكون الكاف مخفف أُكُم بضمتين ، جمع آكام ، ككتب جمع كتاب ، وأكام جمع أكم ، بفتحتين ، كجبل وجبال ، والأكم بفتحتين جمع أكمة ، كثمر وثمرة ، وهي الرابية المرتفعة من الأرض ، والأصوب على رواية لم يقهن كونه مفعولاً ثانياً ليق ؛ إذ الوقاية تتعدى إلى مفعولين ، يقال : وقيته الشر ، قال تعالى : " فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ "[٢] .

(تنعيل) فاعل يق ، وهو شد النعل على ظفر الدابة ، أي أنها ناقة صلبة لا تَحْفَى[٣] في سيرها ، ولا ترق قدمها ، فلا تحتاج إلى النعل عند جريها .

ومعنى البيت أن هذه الناقة صلبة الأعلى ، صلبة الأسفل ، شديدة ، وذلك أنه وصفها بثلاث صفات ، الصفة الأولى صلابة العصب ، من قوله : سمر العجايات ، حيث شبهها بالرماح في قوتها ، الصفة الثانية شدة وطئها الأرض ، بحيث أنها تفرق الحصا إذا وطئته ، الصفة الثالثة صلابة خفافها ، بحيث أنها مع كثرة السير لا تحفى ولا تحتاج إلى تنعيل مع طول المدى ، وإنما خص الأكم التي

---

(١) في م : صف .
(٢) سورة الإنسان الآية : ١١ .
(٣) حَفِيَتِ الدَّابة تَحْفَى " حَفًى " إذا رقّ حافرها (أدب الكتاب لابن قتيبة الدينوري ص ٣٣٧تحقيق محمد الدالي ، ط : مؤسسة الرسالة بيروت)

هي الروابي بالذكر دون غيرها من الأرض لأنها قليلة السلوك ، فتبقى بها الحجارة الخشنة ونحوها ، فإذا كانت لا تحتاج إلى تنعيل لمثل ذلك فلغيره أولى ، والله أعلم .

كأنّ أوبَ ذِراعَيْها، إذا عَرِقَتْ ، ∴

وَقَدْ تَلَفّعَ بالقُورِ العَسَاقِيلُ

(كأن أوب ذراعيها إذا عرقت) الخبر قوله في البيت الحادي والثلاثين : ذراعا عيطل نصف ، وسيأتي هناك أن المراد تشبيه السرعة في السير بسرعة حركة يديها في اللطم ، وأن المعنى أن ذراعيها في سرعة السير كذراعي امرأة طويلة قامت تلطم وجهها لشدة حزنها على ولدها ، والأوب بفتح الهمزة وإسكان الواو وبعدها باء موحدة سرعة تقليب يديها في وقت اشتداد الحر .

وقوله (وقد تلفع) بفتح التاء المثناة فوق وباللام والفاء المشددة والعين المهملة ، فعل ماض معناه التحف .

(بالقور) بضم القاف وبعد الواو راء مهملة ، جمع قارة ، وهي الجبل الصغير .

و (العساقيل) بفتح العين والسين وبعد الألف قاف ، والمراد به السراب، والجملة حال من ضمير عرقت ، والعامل فيها ما في كأن من معنى التشبيه ، والرابط لها الواو ، والتقدير : وقد تلفعت بالعساقيل القور ، إذ الجبال الصغار هي التي تلتحف بالسراب ، بمعنى أنه يرى عليها كاللحف الساترة لها ، لأن السراب يلتحف بها ، فوقع القلب في كلامه ، كما تقول : أدخلت القلنسوة في رأسي ، والمراد أدخلت رأسي في القلنسوة .

ومعنى البيت أن سرعة حركة ذراعي هذه الناقة في السير تكون في شدة وقت الهاجرة وقوة الحر في غاية الإسراع ، فما ظنك بها في غير هذا الوقت ،

وإن لم يصرح بالحر فقد أشار إليه بوجهين ، الأول عرقها مع ما تقدم من وصفها بالقوة والصلابة ، والناقة التي بهذه الصفات لا تعرق لإعياء ولا تعب ، وإنما تعرق لشدة الحر وإن كانت لا تتأثر به ، الوجه الثاني قوة السراب وغلبته بالمفازة ، حتى أنه قد علا فوق الجبال الصغار والكبار ، وذلك لا يكون إلا في وقت الهاجرة ، والله أعلم .

يوماً يظلُّ به الحرباءُ مُصْطَخِداً ∴ كأن ضاحِيَهُ بالشمس مملولُ

(يوماً) ظرف لتلفع أو عرقت ، أو بدل من إذا بدل كل .

و (يظل) بفتح الظاء المعجمة ، مضارع ظللت بالكسر ، يقال : ظللت أعمل كذا ظلولا ، إذا عملته بالنهار ، وقد يخفف بحذف إحدى اللامين ، ومنه قوله تعالى : " وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا "(١) وقد يفسر يظل بمعنى يصير .

و (به) بمعنى فيه .

و (الحرباء) بكسر الحاء ، دويبة مخططة تستقبل الشمس وتدور معها فتصير وقت الهاجرة في أعلى الشجر ، وقيل حيوان بري له سنام كسنام الإبل يستقبل الشمس ويدور معها كيف دارت وتلون ألوانا بحر الشمس ، وهو في الظل أخضر ، ويكنى أبا قرة ، وكنية أنثاه أم حُبَيْن وبه يضرب المثل ؛ لأنه يمسك ساق الشجر فلا يرسله إلا ويمسك ساقاً آخر ، وألفه للإلحاق بقرطاس.

وقوله (مصطخد) بكسر الخاء المعجمة ، أي محترقا، وأصله مصتخدا، يقال : اصطخد ، إذا اصطلى بحر الشمس ، وروي : مصطخما ، واصطخم ، بالميم ، أي انتصب قائما .

---

(١) سورة طه الآية : ٩٧ .

(كأن ضاحيه) كأن حرف تشبيه ، وضاحيه اسمها ، والضاحي البارز ، والإضافة على معنى في ، أي : كأن الضاحي فيه ، أي كأن الحيوان الذي يبرز فيه للشمس يصير مملولاً بحرها ، أي محترقاً كاحتراق الخبز بالملة ، ويروى : بالنار ، بدل بالشمس ، والباء للسببية ، ومملول مفعول من مللت الخبز بالفتح ، أمله بالضم ، من باب رد ، إذا عملته في الملة بفتح الميم ، وهي الرماد الحار ، وقيل الحفرة نفسها ، ويقال لذلك الخبز : ملول ومليل أيضا .

والحاصل أنه يشبه أوب ذراعيها بأوب ذراعي عيطل وقت عرقها في يوم شديد الحر يظل فيه الحرباء محترقاً بحيث يكون ظاهره كأنه بسبب الشمس مجعول في الرماد الحار ، والله أعلم .

وقالَ للقَومِ حاديهم ، وقد جَعَلَتْ ∴ وُرْقُ الجَنَادِبِ يركُضْنَ الحَصَى : قيلوا

(وقال) عطف على تلفع الواقع حالاً للقوم .

(حاديهم) أي سائق إبلهم بالحداء ، وهو الغناء .

(وقد جعلت) الواو للحال ، وقد حرف تحقيق ، وجعل فعل ماض وعلامة التأنيث .

(ورق الجنادب) الورق ، بضم الواو ، جمع أورق ، كحمر وأحمر ، والورقة لون يشبه الرماد ، وقيل أخضر يضرب إلى السواد ، وقال : أرق ، بإبدال الراء وهمزة ، لأن الواو مضمومة ضمة لازمة ، مثل وجوه ، واحترزنا باللازمة عن نحو هذا ولو[١] ، والجنادب جمع جندب ، بضم الجيم والدال ، وقد تفتح ، ذكر الجراد ، وقيل ضرب منه ، وقيل الصغار منه ، والإضافة على معنى

---

(١) هكذا في النسختين ، ولم أفهم المراد .

من ، أي ورق من الجنادب ، أو من إضافة الصفة للموصوف ، أي الجنادب الورق .

(يركضن الحصى) الركض تحريك الرجل ، ومنه قوله تعالى : " ارْكُضْ بِرِجْلِكَ "(١) ، أي والحال أن الجنادب الورق أخذن يحركن أرجلهن على الحصيات لا يمكن لهن التمكن عليها لكونها محماة بالحر ، ولا الطيران عنها لإعيائها عنه لتأثير الحر فيها ، فالمعنى يركضن أرجلهن على الحصا ، وأخذن يضربن الحصى بأرجلهن لقصد النزول للإعياء عن الطيران فيهربن من حرها .

وقوله (قيلوا) مقولُ قال ، وهو أمر من قال يقيل قيلولة ، وهي النوم في نصف النهار ، وقيل الاستراحة في النهار وقت شدة الحر وإن لم يكن مع ذلك نوم ، ومنه قوله تعالى : " أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا "(٢) ومن الأول قوله تعالى : " فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ "(٣).

ومعنى البيت أن هذا اليوم من شدة حره وهواجره كان الحادي الذي من شأنه أن ينشط الإبل للسير هو الآمر للقوم بالقيلولة إشفاقاً على الإبل ، وأكد ذلك بوصف الجنادب بكونها ورقا ، فإنها لا تكون بهذا اللون إلا في القفار الموحشة الشديدة الحر البعيدة الماء ، كما تقدم ، فتكون تلك الناقة مع سيرها في الحر الشديد فيها صبر على العطش في القفار عند ضعف غيرها ، والله أعلم .

---

(١) سورة ص الآية : ٤٢ .
(٢) سورة الفرقان الآية : ٢٤ .
(٣) في النسختين : فجاءهم بأسنا ، والآية من سورة الأعراف رقم : ٤ .

شَدَّ النهارِ، ذراعا عيطَلٍ نَصَفٍ، ∴

قامت فجاوبَها نُكْدٌ مَثَاكِيلُ

(شد النهار) أي ارتفاعه ، فهو مصدر جعل ظرفا ، أي وقت ارتفاعه ، كلقيتك قدوم فلان ، فهو إما ظرف لغو(١) لقيلوا ، أو بدل من يوماً في : يوماً يظل به الحرباء .

وقوله (ذراعا عيطل) خبر كأن بحذف مضاف ، أي كأن أوب ذراعيها ـ أي هذه الناقة ـ في هذه الحالات أوب ذراعي عيطل ، والعيطل بفتح العين وإسكان الياء وفتح الطاء بعدها لام ، المرأة الطويلة .

(نصف) بفتحتين ، وهي التي بين الشابة والكهلة ، وضمير قامت إلى عيطل ، أي قامت تلطم وجهها فجاوبها ، أي في اللطم ، والفاء للسببية .

(نكد) بضم النون وسكون الكاف ، جمع نكداء ، كحمراء وحمر ، وهي التي لا يعيش لها ولد .

و (مثاكيل) بفتح الميم وثاء مثلثة بعدها ألف ثم كاف مكسورة ثم ياء ساكنة بعدها لام ، جمع مثكال بكسرها ، وهي الكثيرة الثكل ، والثكل فقدان المرأة ولدها ، أي التي مات لها أولاد كثيرة ، وفي المختار : والثكل بوزن القفل ، فقدان المرأة ولدها ، وكذا الثكل بفتحتين ، وامرأة ثكلى وثاكل وثكلته أمه ، بالكسر ، ثكلاً ، والمعنى أن ذراعي هذه الناقة في سرعة السير كذراعي امرأة طويلة قامت تلطم وجهها لشدة حزنها على ولدها فجاوبتها نسوة فقدن أولادهن ، وذلك أنها إذا رأت حزن غيرها على ولدها وشدة ما هن عليه من اللطم اشتد فعلها وقوي ترجيع يديها عند النياحة ، وهذا التشبيه في غاية الحسن .

(١) الظرف اللغو ما ذكر فيه العامل .

فإن قيل : ما المعنى في وصفها بالطول في قوله : عيطل ، وبالتوسط في السن في قوله : نصف ؟ فالجواب أن الطويلة تكون أطول ذراعا ، فتكون أوسع خطوة ، فإذا وافقها بسرعة الحركة مع ذلك كان في غاية الإسراع ، وأما التوسط في السن فإنه حين استكمال قوتها وبلوغ أشدها وتمام قامتها ــ إذ تكون قد انتهت في الطول ــ فتكون أمدّ للخطوة ، وأمكن للسرعة ، والله أعلم .

نَوّاحةٍ ، رِخْوةِ الضَّبْعينِ ، ليس لَها، ∴

لما نَعَى بَكْرَها النّاعون ، معقولُ

(نواحة) بفتح النون وتشديد الواو وبعد الألف حاء مهملة مفتوحة ثم هاء تأنيث ، وهي التي بالغت في نوحها على ميتها ، وهي بالجر صفة لعيطل ، وبالرفع خبر لمبتدأ محذوف ، وبالنصب بتقدير أعني ، ولا يحسن هنا تقدير أمدح؛ لأنه غير مناسب للمقام .

(رخوة) بكسر الراء وإسكان الخاء وفتح الواو ، وهي المسترخية .

(الضبعين) بفتح الضاد وإسكان الباء وفتح العين وبعدها ياء ثم نون ، مثنى ضبع بسكون الباء ، وهو العضد ، وجمعه أضباع ، على غير قياس ، كأفراخ وأحمال ، والضبُع بضم الباء الحيوان المعروف ، جمعه ضِباع ، كسبع وسباع ، واسم الذكر ضِبْعَان ، وجمعه ضَبَاعِين ، كسِرحان وسراحين .

(ليس) فعل ماض جامد ناقص ، يرفع الاسم وينصب الخبر .

(لها) جار ومجرور ، خبرها مقدم .

(لما) حرف وجود لوجود ، ويختص بالماضي ، وذهب الفارسي إلى أنه ظرف .

(نعى) فعل ماض ، والفتحة مقدرة على الألف .

(بكرها) بكسر الباء وسكون الكاف ، وهو أول الأولاد ، ذكراً كان أو أنثى ، وهو مفعول مقدم .

(الناعون) أي المخبرون بالموت النادبون له ، وهو فاعل مؤخر مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم ، وهو جمع ، وأصله ناعيون ، ولكن حذفت الياء كما في القاضون والداعون ، وهو القياس ، ويكسّر على نُعَاة ، كرماة وقضاة ، وفي المختار : النعي خبر الموت ، يقال : نعاه له ينعاه نعيا ، مثل سعى يسعى سعيا ، والنعيُّ بالتشديد ، على فعيل ، مثل النعي ، فكل منهما معناه الإخبار بالموت ، يقال : جاء نعيُ فلان ونعيُّه ، أي خبر موته [١]. ا هـ بتصرف .

(معقول) اسم ليس ، والمعقول هنا العقل ، وهو أحد المصادر التي جاءت[٢] على مفعول ، كمعسور وميسور ومفتون ، قال الله تعالى : " بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ "[٣] أي الفتنة .

ومعنى البيت أن هذه النائحة التي شبه ذراعي الناقة في سرعة الحركة بذراعيها مع كثرة نوحها مسترخيةُ العضدين ، فيداها سريعتا الحركة ، وأنها لما أخبرها الناعون بموت ولدها لم يبق لها عقل ، فهي مع استرخائها وسرعة حركة يديها وقوة نياحتها ليس لها من العقل رادع يردعها ، ولا زاجر يزجرها ، ولا تحس بالإعياء والتعب ، فكانت نياحتها حينئذ أشد وأبلغ ، وكذلك هذه الناقة في سيرها ، ويؤكد ذلك قوله في البيت السادس والعشرين : وهي لاهية ، على إحدى الروايتين كما تقدم هناك ، وقد وقعت المبالغة في هذا البيت من أربعة أوجه :

أحدها : أن نوّاحة صيغة مبالغة مقتضية لكثرة النوح .

---

(١) ينظر : مختار الصحاح ص ٣١٥ .
(٢) في م : حمات .
(٣) سورة القلم الآية : ٦ .

الثاني : أن الرخوة الضبعين أسرع حركة من غيرها .

الثالث : أن ولدها المنعي إليها هو بكرها وأعز أولادها .

الرابع : أنه نعي إليها وجاءها خبره من بُعد ، ولم تكن ممرضة له فتتسلى بتمريضه ، والله أعلم .

تَفري اللَّبانَ بِكَفّيها ، ومِدرَعُها ∴ مُشَقَّقٌ عن تَراقِيها ، رَعابيل

(تفري) بالفاء والراء ، فعل مضارع مرفوع بضمة مقدرة على الياء ، أي تقطع ، ويجوز في التاء الفتح والضم ، يقال : فريته وأفريته ، بمعنى واحد ، وقيل : بل هو مختلف ، فأفْرَيْتُ الأديمَ قطعته للإفساد ، وفَرَيْتُه قطعته للإصلاح ، والفاعل مستتر ، والجملة صفة أخرى لعيطل .

(اللبان) مفعول ، وهو بفتح اللام ، الصدر ، وقد تقدم في قوله :

يمشي القراد عليها ثم يزلقه ∴ منها لبان ....

وأل فيه نائبة عن الضمير .

و (بكفيها) جار ومجرور متعلق بتفري ، والباء للاستعانة ، وأُورد عليه أن الفري بالأنامل لا بالكفين ، وأجيب : بأن الكلام على حذف مضافين ، أي بأنامل أصابع كفيها .

(ومدرعها) أي ومدرع تلك النواحة ، والمِدْرَعُ بفتح الميم وإسكان الدال وفتح الراء ، القميص ، وهو مبتدأ ومضاف إليه .

(مشقق) خبر لمبتدأ ، وفيه ضمير مستتر يعود على مدرعها ، أي مشقوق كثيرا ، وهذه الجملة حال من فاعل تفري .

(عن تراقيها) جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمشقق ، كقوله تعالى: " وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ "(١) إذا جعلت الباء بمعنى عن ، والتراقي جمع تَرْقُوَة(٢) بفتح التاء ، وهي عظام الصدر التي تقع عليها القلادة ، والعامة يضمونها ، وهو خطأ ، وزنها فَعْلُوَة

(رعابيل) خبر بعد خبر ، أو صفة ، وهو بمهملتين : القِطَع ، جمع رُعبول ، كعصفور ، وهو القطعة من الشيء ، ومنه رَعْبَلْتُ اللحم إذا قطعته وجزأته .

ومعنى البيت أن هذه النائحة لما ذهب عقلها بنعي ولدها إليها صارت تقطع صدرها بكفيها ، وقميصها مشقق قُطعَ عن صدرها ، وهو كالمؤكد للذي قبله من ذهاب العقل ، والمراد من تشبيه الناقة بهذه المرأة في هذه الحالة أنها ــ أي الناقة ــ صارت مسلوبة الإدراك لا تحس بما تقاسيه من مشقة السير .

وهذا آخر ما أتى عليه من أوصاف الناقة ، والله أعلم .

تَسْعَى الوُشاةُ جنابَيْها ، وَقَوْلُهُمُ ∴ إنّك يا ابنَ أبي سُلْمَى لَمَقْتُول

(تسعى) يحتمل ثلاث معان ، الأول أن يكون من قولهم : سعى به إلى السلطان سعاية إذا وشى به ، الثاني أن يكون من باب الإسراع في السير ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم :" إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون "(٣) ويحتمل أن يكون منه قوله تعالى : " وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى "(٤) ، الثالث أن

---

(١) سورة الفرقان الآية : ٢٥ .
(٢) في م : ترقوق .
(٣) صحيح مسلم ١/٤٢٠ ح ٦٠٢ .
(٤) سورة القصص الآية : ٢٠ .

يكون من قولهم : سعى إليه ، إذا أتاه ، ومنه قوله تعالى : "فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ"(١) وهذه الجملة مستأنفة للتخلص للمدح ، أو حال من سعاد ، أي فارقَتْ والحال أن الوشاة يسعون حولها .

(الوشاة) بضم الواو ، جمع واش ، وهو الذي يمشي بالنميمة ليغير الخواطر ، وسموا وشاة لأنهم يُوَشُّون الحديث ، أي يزينونه ، أخذاً من الوَشْي(٢) الذي هو تحسين الثياب وتزيينها .

وقوله (جنابيها) جنابي سعاد ، وتثنية جَنَاب بفتح الجيم ، وهو فناء الشيء ، بكسر الفاء ، وما قرب من محلة القوم ، والمراد ناحيتا سعاد ، ويروى: حواليها بدل جنابيها ، وهو جمع حول ، بمعنى جهة ، على غير قياس ، أي تسعى الوشاة في جهاتها ، أي يسعون إليها بالإفساد بينه وبينها وتنفيرها عنه ، فحواليها بمعنى جنابيها .

(وقولهم) بالرفع وإشباع الميم ، ويروى : وقِيلُهُمُ ، بكسر القاف مع ضم اللام ومع إشباع الميم أيضا ، والقيل مصدر كالقول ، وعلى كل فهو مبتدأ ، خبره جملة قوله : إنك لمقتول ، وهي عين المبتدأ ، فلا تحتاج إلى رابط ، وهذا إذا كان القول بمعنى المقول ، فإن كان مصدراً فجملة إنك لمقتول مقولة ، والخبر محذوف تقديره حاصل ، أي وقولهم هذا القول حاصل منهم ، ويروى بنصب قولهم على أنه معمول لمحذوف ، أي ويقولون قولهم ، وجملة قوله : إنك ...الخ مقول القول ، وعلى كل فجملة النداء اعتراضية بين المبتدأ وخبره ، أو بين القول ومقوله ، وجملة وقولهم ...الخ معطوفة على جملة تسعى ؛ لأن المراد من هذا السياق أنهم يسعون فيما بينه وبينها ، وأنهم يرجفون به ويقولون له : إنك مقتول ، فالاسمية المعطوفة ترجع إلى فعلية من حيث المعنى ، فكأنه قال : تسعى

(١) سورة الجمعة الآية : ٩ .
(٢) في م : الواشي .

الوشاة فيما بيني وبينها ويقولون لي : إنك لمقتول ، والمعنى فيهما على المضي، أي قد سعوا وقد قالوا ، ويؤيده عطف الماضي الآتي في قوله : وقال كل .

وقوله (يا ابن أبي سلمى) هو كعب نفسه ، وأبوه زهير ، فنسب نفسه إلى جده الذي هو أبو سلمى ، واسمه ربيعة ، والجر في أبي بكسرة مقدرة على الياء لأنه من الأسماء الستة ، أو بالياء نفسها على المشهور ، وفي سلمى بفتحة مقدرة على الألف ، ولا تقدر الكسرة لأنه لا ينصرف ؛ لألف التأنيث ؛ لأن فُعْلَى لا تكون ألفه إلا للتأنيث ، وسُلمى بضم السين ، بوزن حُبلَى ، وليس في العرب سلمى بضم السين غيره .

(لمقتول) اللام لام الابتداء ، وفائدتها زيادة التأكيد ، ومعنى لمقتول أي صائر إلى القتل ، أي يقتلك محمد ، كقوله تعالى : " إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ "(١) أي صائرون إلى الموت .

ومعنى البيت أن كعباً ما كفاه ما لاقاه من صد محبوبته وإعراضها عنه وبعدها عنه بحيث صارت إلى مسافة في البعد لا يبلغها إلا الناقة التي وصفها بالصفات المتقدمة ، حتى أن الوشاة يسعون به عندها ، ويغيرون خاطرها عليه ، وينفرونها عنه ، ثم يرجعون إليه فيخوفونه بالقتل ويضيقون عليه سبيل النجاة .

والحاصل أن معنى الوشاة يرجع في شأنه إلى مقصدين :

المقصد الأول : سعيهم به عندها وإبعاد وصلها عنه ، وهو المعني بقوله: تسعى الوشاة جنابيها ... ، وهذا قد ابتلي به كثير من المحبين فيمن يحبونه ، فقلّ أن يظفر الإنسان بمن يحبه إلا حُسد عليه ، وتطرقت عيون الوشاة إليه فاستمالوه عنه وصرفوا نظره عن رؤية محاسنه ، وإن كان الصادق في المحبة لا يغيره على من يحبه إعراض ، ولا يصرف قلبه محبه صدود ، وهذا هو النوع

(١) سورة الزمر الآية : ٣٠ .

الرابع من أنواع التشبيب ، وهو المتعلق بغير المحب والمحبوب بسببهما ، كما تقدم في أول الشرح .

المقصد الثاني :إرجافهم وتخويفهم له ، وإظهار الشماتة به ، وهو المعني بقولهم : إنك يا بن أبي سلمى لمقتول .

ومن هنا تخلص إلى ذكر قصة نفسه وكيف كان ابتداء أمره مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فانتقل من ذكر سعي الوشاة به عند سعاد إلى تخويفهم له بالقتل الذي كان أوعده به النبي صلى الله عليه وسلم حين أهدر دمه قبل إسلامه ، وهذا كالتوطئة لما يأتي بعده من المدح الذي هو المقصود بالذات من هذه القصيدة .

وقالَ كلُّ خليلٍ كُنْتُ آملُه : ∴ لا أُلْهِيَنَّكَ ، إنّي عنكَ مَشْغُولُ

(وقال) الواو عاطفة على الجملة الاسمية ، وهي قولهم : إنك لمقتول ؛ لما تقدم أنها ترجع في المعنى إلى الفعلية ، فالتقدير : وقال لي الوشاة إنك مقتول، وقال لي كل صديق ..... الخ ، والمعنى أنه لما سمع هذا الوعيد من الوشاة جاء إلى إخوانه الذين كان يأملهم ويعدُّهم للشدائد ويستجير ويستنصر بهم فتبرءوا منه يأساً من سلامته ، وخوفاً من غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم إن آووه أو نصروه، وقالوا له ذلك.

(كل خليل) من الخُلة ، بالضم ، وهي الصداقة ، وأما بالفتح فهي الحاجة والفاقة .

(كنت آمله) فعل ومفعول ، والفاعل ضمير المتكلم ، وآمله خبر كان ، وهي ومعمولاها صفة لخليل ، فموضعها خفض ، ومعنى آمله آمل خيره وأترجى إعانته في المهمات .

(لا ألهينك) لا نافية ، وألهينك بضم الهمزة فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة ، وفاعله ضمير المتكلم المستكن فيه ، يقال : ألهيته عنه ، بمعنى شغلته عنه ، ومنه قوله تعالى : " أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ "(١) والجملة في محل نصب بالقول ، ومعنى لا ألهينك لا أشغلنك عما أنت فيه بأن أسهله عليك وأسليك ، فاعمل لنفسك فإني لا أغني عنك شيئا .

وفي نسخة : لألهينك ، بالإثبات ، فاللام في جواب قسم محذوف ، أي والله لأجعلنك مشغولاً عني ، لأني شُغلت عنك بغيرك فلا تطلب مني نصرة ولا معونة .

(إني) إن واسمها .

(عنك) جار ومجرور متعلق بمشغول .

(مشغول) خبر إن ، وهي ومعمولاها إما بدل من لألهينك ، وإما في موضع التعليل ، فإن كان التعليل على طريق الاستئناف فإن مكسورة ، وإن كان على إضمار لام التعليل فهي مفتوحة ، أي : لأني شُغلت عنك بغيرك وأعرضت عنك بجُرْمِك ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهدر دمك .

ومعنى البيت أن أصدقاءه الذين كان يرجوهم لشدائده ويَخْبَأُهم لوقت مصائبه قد تلاهوا عنه ، وتغافلوا وأعرضوا عن نصرته وخلاصه من القتل ، وتبرءوا منه يأساً من سلامته ، وخوفاً من سطوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وغضبه حين أهدر دمه وأذن في قتله لكل من لقيه ، وحُق لهم أن يخشوا من سطوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقد ثبت في الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم حين نزل بخيبر قال : " اللَّهُ أكبرُ

(١) سورة التكاثر الآية : ١ .

خَرِبَتْ خَيْبَر إِنَّا إذا نَزَلْنَا بساحَةِ قَوْمٍ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ "[١] وقد هاداه جميع الملوك واتقوا سطوته وخافوه ، فهم ما بين مسلم ومسالم ، كيف والله تعالى أيده بالنصر وحماه بالعصمة .

فقُلتُ : خلّوا سَبيلي ، لا أبا لكُمُ ، ∴ فكلّ ما قَدّرَ الرّحمَنُ مَفعُولُ

لما أيس من نصرة أخلائه أمرهم أن يخلوا سبيله ، ولا يحبسوه عن المسير إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمثول بين يديه ، فيمضي فيه حكمه ، فإن نفسه قد أيقنت أن كل شيء قدره الله تعالى فهو واقع .

و (خلوا) أمر من التخلية ، وهي الترك .

و (السبيل) الطريق ، متفقان في المعنى ، وفي الوزن ، وفي الجمع على فُعُل ، وفيه جواز تخفيف عين الجمع بالإسكان ، و الصراط مثلهما إلا في الوزن ، ويجوز في الثلاثة التذكير والتأنيث ، ومن أدلة تأنيث السبيل قوله تعالى : " وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ "[٢] في قراءة ابن كثير[٣] وأبي عمرو[٤] وأبن عامر[٥] وحفص[٦] بتأنيث الفعل ورفع السبيل ، ومن أدلة تذكيره قوله تعالى : " وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا "[٧] .

---

(١) صحيح البخاري ١/٨٣ ح ٣٧١ .
(٢) سورة الأنعام الآية : ٥٥ .
(٣) عبد الله بن كثير الداريّ المكيّ ، أبو معبد ، أحد القراء السبعة ، كان قاضي الجماعة بمكة ، ولد سنة ٤٥هـ وتوفي سنة ١٢٠ هـ (ينظر : وفيات الأعيان ١/٢٥٠)
(٤) زَبَّان بن عَمَّار التميمي المازني البصري ، أبو عمرو، ويلقب أبوه بالعلاء ، من أئمة اللغة والأدب، وأحد القراء السبعة، ولد بمكة سنة ٧٠هـ ، ونشأ بالبصرة ، ومات بالكوفة سنة ١٥٤ هـ (ينظر : الأعلام ٣/٤١)
(٥) عبد الله بن عامر بن زيد، أبو عمران اليحصبي الشامي ، أحد القراء السبعة ، ولي قضاء دمشق في خلافة الوليد بن عبد الملك ، ولد في البلقاء سنة ٨هـ وتوفي فيها سنة ١١٨هـ (ينظر : ميزان الاعتدال لشمس الدين الذهبي ٢/٤٥١تحقيق محمد على البجاوي ، الناشر دار المعرفة ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٦٣م)
(٦) حفص بن سليمان بن المغيرة، قارئ أهل الكوفة، توفي سنة ١٨٠هـ (ينظر : الأعلام ٢/٢٦٤).
(٧) سورة الأعراف الآية : ١٤٦ .

(لا أبا لكمُ) أبا بالألف ، والميم مشبعة بحيث يتولد منها واو في اللفظ ، ولا نافية للجنس ، وأبا اسمها معرب ، والكاف والميم مضاف إليه ، واللام زائدة لتأكيد معنى الإضافة ، فلا تتعلق بشيء ، وأقحمت بين المتضايفين ، وذهب هشام[١] وابن كَيْسَان[٢] وابن مالك[٣] إلى أن اللام غير زائدة ، وأنها ومصحوبها صفة للأب ، فتتعلق بكون محذوف منصوب ، أو مرفوع ، وعلى القولين فيحتاج إلى تقدير الخبر ، وذهب الفارسي [٤]وابن مسعود [٥] وابن الطَّـرَاوَة [٦] إلى أن اللام غير زائدة ، وأنها ومجرورها خبر ، فتتعلق بكون محذوف مرفوع ، وأن اسم لا مفرد مبني ، ولكنه جاء على لغة من يقول :

إِنَّ أَبَاهَا وَأَبَا أَبَاهَا ∴ قَدْ بَلَغَا فِي المَجْدِ غَايَتَاهَا

---

(١) هكذا في النسختين ، ولعلها : ابن هشام .

(٢) محمد بن أحمد بن إبراهيم ، أبو الحسن ، المعروف بابن كيسان ، عالم بالعربية نحوا ولغة، من أهل بغداد ، أخذ عن المبرد وثعلب وتوفي سنة ٢٩٩هـ (ينظر : معجم الأدباء ٢٨٠/٦).

(٣) محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الجيّاني ، أبو عبد الله، جمال الدين ، أحد الأئمة في علوم العربية ، ولد في جيان (بالأندلس) سنة ٦٠٠هـ وانتقل إلى دمشق فتوفي فيها سنة ٦٧٢هـ (ينظر : بغية الوعاة ص ٥٣)

(٤) الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسيّ الأصل ، أبو علي ، أحد الأئمة في علم العربية ، ولد في فسا (من أعمال فارس) سنة ٢٨٨هـ وتوفي سنة ٣٧٧هـ (ينظر : تاريخ بغداد ٢٧٥/٧)

(٥) إبراهيم بن موسى بن بلال بن عمران ابن مسعود ، عالم بالقراءات والفقه والعربية ، ولد في كرك الشوبك (بشرقي الأردن) سنة ٧٧٦هـ ، وتوفي في القاهرة سنة ٨٥٣هـ (ينظر : الأعلام ٧٥/١)

(٦) سليمان بن محمد بن عبد الله ، أبو الحسن ، أديب نحوي أندلسي ، توفي سنة ٥٢٨هـ (ينظر : بغية الوعاة ص٢٦٣)

واعلم أن قولهم : لا أبا لك يستعمل في المدح ، أي أنك شجاع ماجد مستغن عن الأب ، وفي الذم ، أي أنك مجهول النسب ، والمعنيان محتملان هنا ، أما الثاني فواضح ؛ لأنهم لم يغنوا عنه شيئا ، وأما(١) الأول فعلى وجه الاستهزاء والتهكم بهم .

(فكل) الفاء للتعليل ، والمعلل قوله : خلوا سبيلي ، وما بينهما اعتراض .

(ما قدر الرحمن) ما موصوفة لا موصولة ؛ لأن إضافة كل إلى المعرفة توجب إحاطة الأجزاء دون الأفراد ، وإلى النكرة عكس ذلك ، والمقصود إحاطة الأفراد دون الأجزاء ، وجملة : قدر الرحمن صفة ما ، وعائدها محذوف ، أي قدره ، والرحمن معناه واسع الرحمة .

(مفعول) خبر كل ، أي كل ما قدره الرحمن من حياة أو موت واقع لا محالة .

ومعنى البيت أنه لما يئس من نصرة أخلائه وتحقق أنهم لا يغنون عنه شيئاً ولا يستطيعون أن يمنعوا بأس رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرهم أن يخلوا طريقه ليذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يحبسوه عن لقائه والمثول بين يديه ليمضي فيه حكمه ، ذاماًّ لهم ، ومتهكماً بهم بقوله : لا أبا لكم .... ، واستند في أمره إلى اعتماد قدرة الله تعالى ، متيقناً أن ما قدر له وعليه لابد وأن يستوفيه ، لا محيد عنه ، ولا بَرَاح له عن استيفائه ، فأدركته العناية الإلهية من وجهين : **الوجه الأول** : قوة عزمه على لقاء النبي صلى الله عليه وسلم ، والمسير إليه ليحصل على السعادة الأبدية والنعم السرمدية التي لا تنفد ولا تبيد ، وذلك أنه تحقق بما كتب إليه أخوه أنه صلى الله عليه وسلم يقبل من جاء إليه تائبا ، ولا يطالب بما كان قبل الإسلام كما تقدم ذكره في أول الشرح ،

---

(١) في م : وأن .

وكان ذلك قد شاع عنه صلى الله عليه وسلم في قبائل العرب وطوائف الأمم ، وشرح الله صدره للإسلام وهداه إلى الصراط المستقيم ، " مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ(١) وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا "(٢) .

الوجه الثاني : ركونه إلى القدر ، واعترافه بوقوعه توفيقاً لمذهب الحق ومنهج الصدق ، قال تعالى : " إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ " (٣)وقال تعالى : " وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا "(٤) .

كلُّ ابنِ أُنثى ، وإن طالتْ سَلامَتُه ، ∴

يَوْماً على آلةٍ حَدْباءَ مَحمولُ

(كل) مبتدأ ، وخبره محمول .

(وإن) وصلية ، وهي عطف على محذوف ، أي إن لم تطل أو طالت ، والجملتان في محل النصب على الحالية من ضمير محمول ، أي محمول على جنازة ، مستوياً طولُ سلامته وعدمه ، ويجوز في الجملة الشرطية أن تقع حالاً إذا شرط فيها الشيء ونقيضه ، نحو : لأضربنه إن ذهب وإن مكث ، وقيل : جواب الشرط محذوف سد مسده خبر ما قبله ، على حد قوله تعالى : " وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ "(٥) .

و (يوماً على آلة) ظرفان لمحمول ، وربما يسبق إلى الخاطر تعلق يوماً بطالت ، وهو فاسد في المعنى ، والمراد بالآلة الحدباء النعش ، سمي بذلك قيل

(١) في النسختين : المهتدي ، وهو خطأ.
(٢) سورة الكهف الآية : ١٧ .
(٣) سورة القمر الآية : ٤٩ .
(٤) سورة الأحزاب الآية : ٣٨ .
(٥) سورة البقرة الآية : ٧٠ .

لضيقه ، فإن من معاني الحدباء الضيّقة ، وقيل لصعوبة مرتقــاه ، أي لصــعوبة سبب مرتقاه ، وهو الموت ، وقيل لارتفاعه ، وقيل أخذاً من قولهم : ناقة حدباء، إن بدت جوانبها ؛ لأن النعش كذلك ، والظاهر أنه سمي بذلك تشــبيهاً بالرجــل الأحدب ، فإن العرب لم تكن تعرف هذا النعش المحدودب من الخشــب ، وإنمــا كانوا يأخذون عصياً يربعونها تربيعاً مستطيلاً وينسجون وسطها بالحبال يحملون عليها موتاهم ، والعرب في البوادي على ذلك إلى الآن ، وهذه الآلــة إذا وضــع فيها الميت وثَقُلَ على الحبال برزت عن العصي من جهة السُّفْل ، فأشبهت الرجل الأحدب في بروز ظهره .

ومعنى البيت أن الإنسان وإن طالت سلامته من العوارض والآفات فلابــد من وروده حياض الموت ، وحمله إلى الرَّمْس ، أي تراب القبر ، ومصيره إلــى الأجداث ، وإذا كان الأمر كذلك فهل يجزع الجازع بمثله ويخوَّف من قتْل وغيــره ؟؟، وحقيق ما قاله ؛ فالموت لا مخلص منه بالفرار والامتناع بالتحصــن ، فمــم الجزع يا صاحب الفزع ، وبم تفرحون أيها الشامتون ؟؟ ، ولله در من قال :

فقُلْ للشامتينَ بنا أَفيقُوا ∴ سَيَلْقَى الشامتُونَ كما لَقِينَا(١) .

أُنبِئتُ أنّ رسولَ اللّه أوعَدَني ، ∴

والعَفوُ عندَ رَسولِ اللَّهِ مأمولُ

(أنبئت) بصيغة المجهول ، أي أخبرت ، وروي : نبئت ، وهو بمعناه ، وكل منهما يقتضي ثلاثة مفاعيل ، الأول وهو القائم مقام الفاعل ، والثاني والثالث أن مع اسمها وخبرها ، فقد سدا مسدهما ، وقيل الثالث محذوف ، أي أنبئت إيعاد

---

(١) البيت للعلاء بن قُرْظَة الضبي (ينظر : الشعر والشعراء لابن قتيبــة الــدينوري ٤٦٨/١ الناشر : دار الحديث القاهرة ، ١٤٢٣هـ)

رسول الله صلى الله عليه وسلم حاصلا ، وترك ذكر الفاعل هاهنا لأمرين ، أحدهما أنه لا يتعلق بتعيينه غرض ، ومثله قوله تعالى :" إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ "(١) " وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا "(٢) "وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ " (٣) والثاني أن مقام الاستعطاف يناسبه أن لا يحقق فيه المخبر بالوعيد ، بل أن يؤتى به معرّضاً كأن يقول : روي كذا ، وأعاد ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم إظهاراً للتعظيم وإشعاراً بالتفخيم ، ولذا أتى بعند ، دون من ، لأن تلك أدل على التعظيم ، ولتقوية الرجاء عند الكريم ، إذ قد تواتر أن الصفح والكرم من أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ففي ذكر صريح اسمه وصحيح رسمه ما ليس في الضمير من التفخيم ، ولأن فيه تكرار الاعتراف بالرسالة التي هي مقتضية للعفو ومستجلبة للرضا .

ثم اعلم أن جميع ما تقدم توطيد لهذا البيت المكرم ؛ فإن غرضه من القصيدة وما فيها من الإتحاف هو التنصل والاستعطاف ، ومحل البيت استرضاؤه عليه السلام ، واستجلاب أخلاقه الكرام ، من حصول رحمته وعنايته ودفع سخطه وغضبه وملامته ، وقد روي أنه صلى الله عليه وسلم لما سمع هذا البيت قال : " العفو عند الله " ذكره ابن جماعة (٤).

فقد أتيت رسول الله معتذرا ∴

والعذر عند رسول الله مقبول

عطف على أنبئت ، أي أخبرت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوعدني فقد جئته معتذرا ، وهذا البيت غير موجود في أكثر النسخ .

---

(١) سورة المجادلة الآية : ١١ .
(٢) سورة المجادلة الآية : ١١ .
(٣) سورة النساء الآية : ٨٦.
(٤) لم أقف عليه .

مَهْلاً هداك اللّه الذي أَعْطَاكَ نافلةَ ال ∴

قُرْآن فيها مَوَاعِيظٌ، وَتَفْصيل

هذا البيت وما بعده تتميم للاستعطاف ، والاستعطاف فيه من جهات :

إحداها : ما اشتمل عليه من طلب الرفق والأناة في أمره بقوله : مهلا ، وأصله : أمهل عليَّ إمهالا ، فهو مصدر أنيب عن فعله وحذف زائدُه ، وهما الهمزة والألف ، ففيه إشارة إلى قدرته عليه السلام وتمكنه منه ، وأنه ليس له من النبي صلى الله عليه وسلم مهرب ولا مخلص ، وهذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، فالتفت فيه من الغيبة في قوله في البيت الذي قبله : أنبئت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوعدني ، إلى الخطاب بقوله : مهلا....... .

والثانية : الدعاء في : هداك ، فإنه خبرٌ لفظاً دعاءٌ معنىً ، ومثله : غفر الله لك ، وصلى الله على محمد ، وهو أبلغ من صيغة الطلب .

الثالثة : التذكير بنعمة الله عليه ، ليكون ذلك أدعى إلى العفو شكراً للنعمة ، ووجه استعماله على التذكير بنعمة الله [عليه أمران ، أحدهما أن معنى][1] هداك زادك هدى ، فاقتضى ذلك هدى سابقاً وطلبَ هدى متجددٍ ، وقيل المراد هداك ، أي للصفح والعفو كما أوعدتني به ، فيكون في الحقيقة داعياً لنفسه ، لما فيه من التذلل والمسكنة والتلطف في الدعاء والمسألة ، والثاني أن في قوله : نافلة القرآن ، إشارة إلى أن الله تعالى أنعم على رسوله بعلوم عظيمة علمه إياها ، وجعل الكتاب زيادة له على تلك العلوم ، قال ابن هشام : وهذا أحسن ما ظهر لي في تفسير قوله تعالى : " ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ "[2] أي زيادة على العلم الذي أحسن ، أي أتقن معرفته ، والذي دل

---

(١) ساقط من م .

(٢) سورة الأنعام الآية : ١٥٤ .

على إرادة ذلك قوله : نافلة ، إذ النافلة العطية المتطوع بها زيادة على غيرها ، ومنه قيل لما زاد على الفرائض من العبادات : نافلة ، قال تعالى : " وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ "(١) ولذلك سمى الابن نافلة في قوله تعالى : " وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً "(٢) .

الرابعة :الإقرار بالتنزيل ، وهو من تمام الإسلام الذي يحقن الدم ويصون عن القتل. الخامسة : التذكير بما جاء في التنزيل من قوله تعالى : " خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ "(٣) والإضافة في : نافلة القرآن مثلها في أخلاق ثياب ، أو بمعنى في ، على تقدير مضاف ، أي نافلة فوائد القرآن ، أو المضاف مقحم ، ويجوز نصب القرآن على أن يكون حذف التنوين من نافلة ليس للإضافة ، بل لالتقاء الساكنين ، ويكون حينئذ نافلة إما حالاً تقدمت ، وإما مفعولاً ثانياً والقرآن بدل .

وقوله (فيه مواعيظ) وفي نسخة : فيها مواعيظ ، وفي نسخة : مواعيد بدل مواعيظ ، وكلاهما بالتنوين للضرورة ،والجملة صفة نافلة القرآن بحذف الموصول ، أي نافلة القرآن التي فيها مواعيظ ....الخ ، أو مستأنفة ، كأنه قيل : ما فيها ؟ فقال : فيها مواعيظ ، أو معترضة لمدحها .

و(تفصيل) بالصاد المهملة ، أي تبيين ما يحتاج إليه من أمر المعاش وأحكام الأصول والفروع للعباد .

لا تأخُذَنّي بأقْوَالِ الوُشاةِ ، وَلم ∴

أُذْنِبْ، وإن كَثُرَتْ فيّ الأقَاوِيلُ

---

(١) سورة الإسراء الآية : ٧٩ .

(٢) سورة الأنبياء الآية : ٧٢ .

(٣) سورة الأعراف الآية : ١٩٩ .

الجملة مبينة لقوله مهلا ، وهي سؤال تضرع ومسكنة ، ولا ناهية بحسب وضعها الأصلي ، وليس مراداً هنا ؛ لأن النهي لا يكون إلا من الأعلى للأدنى ، ومقام النبي صلى الله عليه وسلم أعلى وأرفع من مقام كعب ، فالقصد الاستعطاف والتذلل ، والمضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة .

و (الوشاة) بضم الواو ، جمع واش ، وقد تقدم أنه هو الذي يسعى بين المحب ومحبوبه بالإفساد ، والواو في قوله : ولم أذنب للحال ، والفاعل ضمير المتكلم ، وليست الجملة معطوفة ؛ لأنه خلاف المعنى ، ولأن الخبر لا يعطف على الطلب ، بل هي حالية ، أي لا تأخذني بأقوالهم عني إني مذنب ، والواو في وإن كثرت حالية ، كذا يعبرون عنها ، والتحقيق أنها عاطفة على محذوف ، أي على كل حال وإن كنت على هذه الحالة ، وقال بعضهم : عطف على محذوف ، أي إن تكثر وقد كثرت ، والجملتان بعد انسلاخ معنى الشرط عن إن وإرادة التسوية في محل النصب على الحالية من فاعل لم أذنب ، أي حال كوني مستوياً كثرة الأقاويل في شأني وعدمها ، ويروى : ولو كثرت عني ، والمعنى لا تبح دمي ولا تعاقبني في جرمي بسبب أقوال الوشاة الكاذبين ، والحال أني غير مذنب بعد أن هداني الله ، فإن الإيمان يجب ما قبله ، أو ولم أذنب الذنب الذي قيل عني كله ، بدليل قوله : وإن كثرت في ، أي في شأني ، الأقاويل ، بل وقع مني ما يسعه حلمك وعفوك وكرمك .

و (الأقاويل) فاعل ، وهي جمع أقوال ، الذي هو جمع قول ، والله أعلم .

لَقَدْ أَقُومُ مَقَاماً لَوْ يَقُومُ بِهِ ، ∴ أَرَى وَأَسْمَعُ ما لَوْ يَسْمَعُ الفِيلُ

لَظَلَّ يُرْعَدُ ، إلاّ أنْ يَكُونَ لَهُ ∴ مِنَ الرسول ، بإذنِ اللَّهِ ، تَنْوِيلُ

هذان البيتان مرتبط أحدهما بالآخر مع تواليهما ، لأن الأول منهما فيه تضمين ، لتوقفه على الثاني في استقامة التركيب ، من حيث أن جواب لو مذكور في الثاني ، فحسن الكلام عليهما جملة واحدة ، فنقول :

(لقد) جواب قسم محذوف ، أي والله لقد أقوم ؛ لأن لقد لا تكون إلا جواباً لقسم ، ملفوظ به نحو : " تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا " [(١)]، أو مقدر نحو : " لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ "[(٢)] ، ويروى : إني أقوم مقاماً ..... والرواية المشهورة هي الأولى ، وهي أبلغ في المعنى لتأكيدها بالقسم المحذوف .

و (المقام) بفتح الميم ، ظرف مكان ، فانتصابه على الظرفية ، والمراد به مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم ، والمراد بالقيام فيه حضوره والاستقرار فيه ، أي لقد أقوم في مقام ، والمعنى على المضي ، أي لقد قمت ، أي حضرت .

(مقاما) أي مجلسا .

(لو يقوم به) أي لو يحضر فيه ، وفاعل يقوم محذوف، أو مضمر تقديره : لو يقوم به الفيل ، أو : لو يقوم هو ، أي الفيل ، به ، أي فيه ، والمعنى على المضي كما تقدم ، وجواب لو محذوف يدل عليه جواب : لو يسمع ، كما سيأتي ، وجملة لو وجوابها صفة : مقاما ، والواو فيه (الضمير في) به .

(١) سورة يوسف الآية : ٩١ .

(٢) سورة الأحزاب الآية : ٢١ .

وقوله (أرى) جملة فعلية ، والمعنى فيها على المضي أيضا ، وهي معطوفة على جملة أقوم بعاطف مقدر .

وجملة (أسمع) معطوفة عليها ، فكأنه قال : لقد أقوم مقاماً وأرى وأسمع .....إلى آخره ، أي لقد قمت ورأيت وسمعت ، ويحتمل أن جملة أرى وأسمع في محل الحال من فاعل أقوم ، أي لقد أقوم حال كوني أرى وأسمع ، والرابط محذوف تقديره أرى فيه وأسمع فيه ، أي في ذلك المقام ، ومفعول أرى محذوف بدلالة ما بعده ، أي أرى ما لو يراه الفيل لظل يرعد ، فليس بين أرى وأسمع تنازع في المفعول ، وهو : ما لم يسمع الفيل ، إذ ليس المراد أرى ما لو يسمعه الفيل ، بل المراد أرى ما لو يراه الفيل لظل يرعد ، وأسمع ما لو يسمعه الفيل لظل يرعد .

و (ما) موصولة ، أو موصوفة ، والشرطية الثانية صلتها أو صفتها ، والعائد محذوف ، أي ما ، أي الذي ، أو شيئًا لو سمعه الفيل ، وبين يقوم ويسمع تنازعٌ في الفاعل ، وهو الفيل ، فأيهما أعملته أعطيت الآخر ضميره ، وتنازعٌ في الجزء الآتي ، أعني قوله : لظل يرعد ، لو يقوم ، ولو يراه ، المقدر في ضمن مفعول ، أي ولو يسمع الفيل ، فصرف الجزاء إلى الأخير ، وحكم بحذفه من الأولين ، ويجوز أن يصرف للأول ويحكم بحذفه من الأخيرين .

وقوله (لظل) اللام في جواب لو ، على ما تقدم ، وظل فعل ماض يرفع الاسم وينصب الخبر ، يدل على اتصاف الاسم بالخبر في النهار ، وقد يستعمل بمعنى صار ، وهو المراد هنا ، فلا يتقيد بالنهار ، فالمعنى لصار واستمر يرعد ، بالبناء للفاعل ، أي يضطرب ويتحرك من الفزع ، أو بالبناء للمفعول ، يقال : أرعد فلان من الفزع ، إذا أخذته الرعدة من الخوف .

و (يكون) فعل ماض ناقص .

و (له) خبرها مقدم .

و (تنويل) اسمها مؤخر ، ويجوز أن تكون تامة ، وتنويل فاعلها ، وله حال منه قد تقدم عليه ، وكل من الظرفين ــ أعني : من الرسول ، و بإذن الله ــ متعلق بيكون ، أو متعلق له ، أو بتنويل ، والباء للاستعانة ، والتنويل في أصل اللغة إعطاء النوال الذي هو نعمة عظيمة ، والمراد به هنا الأمان ، والمعنى أني قد حضرت مجلساً هائلا ، ورأيت فيه أمراً عظيما ، وسمعت فيه كلاماً عجيبا ، بحيث لو حضر فيه الفيل ورأى ما رأيت وسمع ما سمعت لأصابته الرعدة ، واستمر يرعد إلا أن تحفه العناية بتأمين الرسول له .

وعبارة بعض الشراح : ومعنى البيتين أن المقام الذي قمته بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم لو قام فيه الفيل الذي هو أعظم من جميع الحيوانات جثة وجأشاً ورأى ما رأيت هناك وسمع ما سمعت لارتعدت فرائصه ، وتزعزعت قوته ، إلا أن يكون له من رسول الله صلى الله عليه وسلم تأمين يسكن به روعه ، ويثبت به نفسه ، كل ذلك لما يدركه من هيبة النبي صلى الله عليه وسلم .

وقد جعل الهيبة التي أشار إليها ناشئة عن ثلاثة أشياء :

الأول : هيبة المقام ، وخفر المجلس ، وذلك أن مجلسه صلى الله عليه وسلم كان في غاية الخفر والاحترام وعظم الهيبة والجلال ، وقد وصف علي كرم الله وجهه مجلسه فقال : " إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رءوسهم الطير ، وإذا سكت تكلموا ، لا يتنازعون عنده الحديث ، من تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ حديثه "(١) ، ولا شك أن ذلك من هيبته صلى الله عليه وسلم عندهم ، واحترامه لديهم ، فلم يزل صلى الله عليه وسلم عظيم الهيبة عندهم ، رفيع القدر لديهم ، لا يزيدهم تلطفه بهم وتأنيسه لهم إلا هيبة .

---

(١) أخرجه الترمذي في الشمائل المحمدية ١/ ٢٩٠ تحقيق سيد بن عباس الجليمي ، ط : المكتبة التجارية ، مكة المكرمة الطبعة الأولى ١٩٩٣م .

الثاني : هيبة الرؤية ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان مهيباً في نفسه ، محفوفاً بالجلال والخفر ، يهابه كل من يراه ، ويجله كل من لاقاه ، وقد جاء في وصفه صلى الله عليه وسلم : " من رآه بديهةً هابه ، ومن عاشره أحبه "(١) ، وفي صحيح مسلم من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه : " .... وَمَا كُنْتُ أُطِيقُ أن أملأَ عَيني مِنْهُ ؛ إجلالاً لَهُ ، ولو قيل لي : صِفْهُ ، لما استطعتُ لأني لم أكن أمْلأ عينيَّ منه "(٢) .

الثالث : هيبة السماع ، وكأنه يشير إلى سماع القرآن ، فإن له روعة تلحق قلوب سامعيه ، وهيبة تعتريهم عند تلاوته ؛ لقوة جلالته وإنافة خطره ، قال الله تعالى : " لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ "(٣) وقال عز وجل : " تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ "(٤) وربما اعترت هذه الهيبة والرعدة من لا يفهم معانيه كالفيل .

حَتّى وَضَعْتُ يميني ، لا أُنازِعُهُ ، ∴
في كَفِّ ذي نَقِماتٍ قِيلُهُ القِيلُ

(حتى) عاطفة بمعنى الفاء ، أي لقد قمت فوضعت يميني وضْعَ طاعة ، والجمهور يرون أن حتى في مثل ذلك حرف ابتداء معناه الغاية ، لا محل للجملة بعدها لأنها مستأنفة ، وما بعد حتى داخل في حكم ما قبلها ، فإنه كان عند وضع

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه ٥/٥٩٩ ح ٣٦٣٨ تحقيق أحمد شاكر وآخرين ، ط : دار إحياء التراث العربي ، بيروت
(٢) صحيح مسلم ١/١١٢ ح ١٢١ .
(٣) سورة الحديد الآية : ٢١ .
(٤) سورة الزمر الآية : ٢٣ .

يمينه في كف رسول الله صلى الله عليه وسلم أخوف ، بدلالة وصفه عليه السلام بذي نقمات .

وجملة (لا أنازعه) حال من فاعل وضعت ، أي وضعت يميني حال كوني طائعاً له ، وراضياً بحكمه فيّ ، لا أخالفه في أي شيء ، وضمير أنازعه عائد على ذي نقمات لتقدمه في المعنى ، باعتبار أن رتبة المفعول – ومنه الجار والمجرور – هنا متقدمة على رتبة الحال ، لأن الحال ملحق بالمفعول ، فرتبته متأخرة عنه .

(ذي) بمعنى صاحب .

(نقمات) بفتح النون وكسر القاف ، جمع نِقْمة بكسر فسكون ، ككلمات جمع كلمة ، وفعلُهُ كضرب يضرب ،قال تعالى : " وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ "(١) " هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا "(٢) وكعلم يعلم ، والنقمة الانتقام ، وأراد بذي النقمات النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه كان ينتقم من الكفار .

(قيله القيل) مبتدأ ومضاف إليه وخبر ، والمعنى : قوله هو القول المعتد به لكونه نافذاً ماضيا ، والجملة صفة لذي نقمات ، والقيل والقال والقول بمعنى واحد .

ومعنى البيت أنه وضع يمينه في كف النبي صلى الله عليه وسلم وضع طاعة ، تسليماً له وانقياداً لأمره ، خوفاً من سطوته وشدة بأسه ، يشير بذلك إلى حاله مع النبي صلى الله عليه وسلم حين قدم عليه وهو في المسجد ووضع يده في يده ، وقال : يا رسول الله إن كعب بن زهير جاء ليستأمن منك تائباً مسلما ،

---

(١) سورة البروج الآية : ٨ .

(٢) سورة المائدة الآية : ٥٩ .

فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به ؟ قال : " نعم " فقال : يا رسول الله ، أنا كعب .. على ما تقدم في أول الشرح ، وقد أشار في هذا البيت إلى أربعة مقاصد :

الأول : وضع يمينه في كف النبي صلى الله عليه وسلم إشارة إلى الاعتناء بشأن التيمن .

الثاني : عدم المنازعة للنبي صلى الله عليه وسلم ، والدخول تحت أمره، والانقياد لطاعته ، وهو من الأمور اللازمة ، والواجبات المتجهة ، حتى أن الله تعالى قرن طاعته بطاعته في كثير من الآيات .

الثالث : وصفه للنبي صلى الله عليه وسلم بأنه ذو نقمات ، والمراد به شدة السطوة وقوة البأس على الكفار ، والإغلاظ عليهم في القول ، وعدم الضراعة لهم ، ائتماراً بأمره تعالى حيث قال : " يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ "(١) الآية ، وقد وصفه الله تعالى بالرأفة للمؤمنين والرحمة بهم فقال : " بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ " (٢) ، وفي حديث عائشة رضي الله عنها : " وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– لِنَفْسِهِ إِلاَّ أَنْ تُنْتَهَكَ حُرُمَاتُ اللَّهِ ،وَمَا ضَرَبَ بِيَدِهِ شَيْئًا قَطُّ إِلاَّ أَنْ يُجَاهِدَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ "(٣) .

الرابع : وصفه صلى الله عليه وسلم بأن قوله القيل ، وهو محتمل لأمرين ، الأول أنه صلى الله عليه وسلم إذا قال قولاً من وعد أو وعيد لابد وأن يقع ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم كذلك ، الثاني أنه إذا سطى لا يثبت

---

(١) سورة التوبة الآية ٧٣ .

(٢) سورة التوبة الآية : ١٢٨ .

(٣) حتى قوله : ...... حرمات الله ، أخرجه البخاري في صحيحه ١٧٤/٨ ح٦٨٥٣ ، وما بعده أخرجه الدارمي في مسنده ١٩٨/٢ ح ٢٢١٨ تحقيق فواز أحمد زملي وخالد السبع العلمي ، الناشر : دار الكتاب العربي ، بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ ، وقال حسين سليم أسد : إسناده صحيح .

لسطوته شيء ، فقد ورد أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا غضب ــ ولا يغضب إلا لله ــ لم يقم لغضبه شيء [(١)]، والله أعلم

لَذَاكَ أهيبُ عِنْدي إذ أُكلّمه ، ∴ وَقِيلَ : إنّك مَنْسُوبٌ وَمَسْؤول

من خَادرٍ من ليوثِ الأسُد مَخدَرُهُ ∴ من بطنِ عثَّرَ ، غِيلٌ دُونَهُ غِيلُ

(اللام) للابتداء ، ويحتمل تقدير القسم قبلها ؛ إذ المقام يقتضيه ، وفي نسخة : فذاك ، بالفاء .

و (إذا) إشارة إلى ذي نقمات ، أو إلى وضع اليمين في كف ذي نقمات، وهو مبتدأ خبره أهيب ، وروي : أرهب ، وهما مبنيان من فعل المفعول ، على حد قوله : أَشْغَلُ من ذات النِّحْيَيْن ، والمفضل عليه : من خادر ، وعند وإذا ظرفان لأهيب .

و (إذ) مضاف إلى أكلمه .

و (وأكلمه) بمعنى كلمته ، ويروى : يكلمني .

وقوله (وقيل) عطف على أكلمه ، أو حال من ضميره ، وفي روايةٍ : لذلك ــ بلام مكسورة ــ فأهيب خبر لمحذوف ، أي هو أهيب لكونه ذا نقمات ، فذا إشارة إلى كونه ذا نقمات ، ومعمول اسم التفضيل وإن امتنع تقديمه عليه إلا أنه يجوز في الظرف ما لا يجوز في غيره .

وقوله (منسوب) أي إلى أمور باطلة قد صدرت عنك ، من نحو قولك : سقاك بها المأمون ، ومن منعك أخاك بجيراً من الإسلام ، ومن تعييرك له به .

(١) الترمذي في الشمائل المحمدية ١٨٤ رقم ٢٢٦ .

و (مسئول) أي عن سببها أو عن نسبك .

و (من خادر) جار ومجرور متعلق باسم التفضيل ، وهو أهيب ، والمجرور هو المفضل عليه ، فحصل الفصل بينهما في البيت قبله بظرف مكان وظرف زمان وحال ، والخادر بخاء معجمة ودال مهملة ، الأسد الداخل في خدره، وخدْرُهُ الأُجْمَةُ ، وهي الأشجار الملتفة ، ومِن الثانيةُ بيانيةٌ ، أي أهيب من ملابسة أسد خادر كائن من ليوث الأسد ، قيل : الليث والأسد مترادفان ، فكيف تصح إضافة أحدهما به إلى الآخر . وأجيب بأن الليث مشترك بين الأسد وضرب من العناكب يصطاد الذباب بالوثوب ، فالإضافة من باب إضافة اللفظ المشترك إلى أحد معانيه ، كعين الشمس ، فهي من إضافة العام للخاص ، وبأن المراد الأسْد القوية الكاملة ، البالغة في الشجاعة والضخامة والقوة والشوكة مبلغاً بحيث تكون هي الأسد بالنسبة إلى غيرها من الأسود ، كما يقال : خواص الخواص ، فترجع الإضافة أيضاً إلى إضافة العام للخاص .

ويروى : من ليوث الغاب ، أي الأجمات ، ويروى : من ضيغم من ضراء الأسد ، والضيغم قيل مأخوذ من الضَّغْم ، وهو القَضُّ ، والضِّرَاء بكسر الضاد[١] المعجمة ، جمع ضار ، على خلاف القياس ، وإنما قياسه ضُرَاة ، كساع وسعاة ، ورام ورماة ، مأخوذ من ضرا بكذا إذا أولع به .

وقوله (مسكنه) بفتح الكاف وكسرها ، مبتدأ ، خبره غيل الأول ، والجملة صفة أخرى لخادر.

و (من بطن) من ابتدائية ، والجار والمجرور صفة خادر ، أي من خادر ناشئ من بطن عثر ، ففيه الفصل بين الصفة والموصوف بأجنبي وهو مسكنُهُ ، وهو جائز ، نحو : " وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ " [٢]، أو بيانية ، ويكون من

(١) في م : الضاء .
(٢) سورة الواقعة الآية ٧٦ .

بطن حالاً من غيل الأول ، ويروى : ببطن ، وعلى كل من الروايتين فبطن مضاف وعثر مضاف إليه ، وهو بفتح العين المهملة وتشديد الثاء المثلثة وفتح الراء ، موضع تنسب إليه الأسود (١)، ومنع من التصرف للعلمية والوزن الخاص بالفعل ، كشَمَّر .

و (غيل) بكسر العجمة ، أي أجمة دونه ، أي قريب منه ، وفي نسخة : بعده غيل ، وغيل الثاني فاعل بالظرف ، أو مبتدأ خبره الظرف ، والجملة صفة غيل الأول ، أي أنه في أجمة داخلة في أجمة ، وذلك أشد لتوحشه وقساوته ، وأكد لضرره وضراوته ، فعلم من هذا أن مسكن الأسد يقال له خدر ، ويقال له غيل ، ويقال له أيضاً أجمة وعرين وعريس وعريشة وزَرَارَة ، بفتح الزاي وسكون الهمزة ، اشتق اسم مكانه من اسم صوته وهو الزئير ، يقال : زأر ، بالفتح ، يزئِر ، بالكسر ، وقد يعكس ، والوصف من هذا زائر ، كفرحْ ، ومن الأول زاير كضارب .

ومعنى البيتين أنه لما كلم النبي صلى الله عليه وسلم في مقامه بين يديه وقد أخبر بأن النبي صلى الله عليه وسلم يتكلم معه في نسبه ، ومن أي قبيلة هو، ويسأله عما أُوشِي في حقه للنبي صلى الله عليه وسلم ليطالبه بالخروج منه — اشتدت هيبته عليه في خطابه ، وعظم في نفسه وقع كلامه ، حتى وهنت قواه ودخله الروع ، واشتدت به الرهبة أكثر مما تداخله الهيبة من الأسد .

<u>وقد اشتمل البيتان على ثلاثة مقاصد :</u>

الأول : هيبته من النبي صلى الله عليه وسلم بسبب ما أوشي في حقه للنبي صلى الله عليه وسلم ، خوفاً أن يطالبه بالخروج منه ، وهو حقيق بذلك ،

(١) بلدة باليمن بينها وبين مكة عشرة أيام ، قريبة من تبالة ، تعد في أعمال زبيد ، وهي معروفة بكثرة الأسود (ينظر : معجم البلدان ٤/٨٥)

وقد تقدم من وصفه صلى الله عليه وسلم أنه إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رءوسهم الطير ، وخص بالأسد إشارة إلى أنه أعظم الحيوانات هيبة ، حتى يقال إن الإنسان بمجرد رؤيته لا يستطيع الفرار منه لشدة الخوف .

فإن قيل : ما المعنى في سؤاله عن نسبه ، وأي غرض يتعلق بذلك ؟ فالجواب : أن ذلك من باب التوبيخ والتقريع له ؛ إذ قد كان أوى إلى قبيلة مُزَيْنة(١) لتجيره من النبي صلى الله عليه وسلم فأبت ذلك على ما تقدم ذكره في أول الشرح ، وكأنه يقول : مَن قبيلتك التي تجيرك مني ، وقومك الذين يعصمونك مني قد تبرءوا منك وتخلوا عنك ؟ .

فإن قيل : لم وصف الأسد بالخادر ، والشجاعة تقتضي الزفير أي البروز ؟ فالجواب عنه من وجهين ، الأول أن الأسد في الوحوش كالملك في الآدميين ، كلما كان مختفياً عن العيون كان أشد هيبة ووقعاً في النفوس ، ولذلك لا تزال الملوك تحتجب عن الرعية ليعظموا في نفوسهم ، ولو خالطوهم أو قربوا منهم لهانوا عليهم ، الثاني أنه إذا لزم الخباء ازداد توحشه ، فتعظم جرأته وإقدامه .

فإن قيل : إذا كان الليث اسماً للأسد صار التقدير : لذاك أهيب من خادر من أسود الأسد ، ولا معنى له ، فالجواب أن الليث اسم للأسد بقيد الجلادة ، كما أن الحسام اسم للسيف بصفة الحسم ، وهو القطع ، يقال: رجل ليث ، إذا كان شديد الجلادة ، وحينئذ فيكون بين الليث والأسد مغايرة ما ، ويكون المعنى : لذاك أهيب عندي من خادر من أجلد الأسد وأقواهم .

فإن قيل : لم خص هذا الأسد بأنه من بطن عثر ؟ فالجواب أنه مكان معروف بالأسد .

---

(١) بطن من طابخة من العدنانية، وهم بنو عثمان وأوس ابني عمرو بن أد بن طابخة ، مساكنهم شرقي المدينة بينها وبين اليمامة (ينظر : نهاية الأرب للقلقشندي ص١٣٦)

فإن قيل : ما المعنى في جعله في غيل داخل في غيل ، ولا يكون مختفياً في مكان داخل مكان إلا الشديد الخوف من غيره ؟ فالجواب أنه قد تقدم أن الأسد كالملك ، وأن الملك كلما كان مختفياً كان أبلغ في الهيبة ، ومقتضى ذلك أنه كلما زاد اختفاؤه اشتدت هيبته ، والله أعلم .

يَغْذو، فَيَلحَمُ ضِرْغامَيْنِ ، عيشُهما ∴

لَحْمٌ مِنَ القَوْمِ مَعفور، خَراديل

(يغذو) صفة خادر ، من غذوتُ الصبي باللبن أي ربيته به ، وفي بعض الروايات : يغدو ، بالدال المهملة ، من الغدو ، وهو خلاف الرواح ، ويصح المعنى أيضاً على أن يكون يعدو بعين ودال مهملتين ، لكنه لم يرد ، ثم إن كانت الرواية : يغذو ، بذال معجمة ، فضرغامين تنازع فيه يغذو ويلحم ، وإن كانت الرواية بدال مهملة فهو مفعول يلحم ، ويجوز في ياء يلحم الفتح راجحاً والضم مرجوحا ، حكى الجماعة : لَحَمْتُه ، من باب نَفَعَ ، أي أطعمته اللحم ، وحكى الأصمعي : ألحمته ، والحاء مفتوحة إذا فتحت الياء ، مكسورة إذا ضممتها .

و (الضرغام) بكسر الضاد المعجمة ، الأسد ، وغرضه وصف هذا الأسد الخادر الذي شبه به النبي صلى الله عليه وسلم ، يقول : يذهب هذا الأسد في أول النهار يتطلب صيداً لولديه فيطعمهما لحما .

وقوله (عيشهما) مبتدأ ، خبره لحم ...الخ ، أي قُوتُهما لحم بني آدم .

و (من) ابتدائية ، أي يُنْزَع ويؤخذ من الرجال ، أو بيانية ، أي لحم كل من لحوم الرجال .

و (معفور) صفة لحم ، أي ملقى في العفَر ، بفتحتين ، وهو التراب .

و (خراديل) صفة أخرى له ، جمع خَرْدَلة ، وهي القطعة من الشــيء ، فالخراديل القطع ، يقال : خردلت اللحم ، بالذال المعجمة وبالــدال المهملــة ، إذا قطعته قطعاً صغارا .

وكون الأسد مربياً لاحماً شبلين عيشهما لحم.... إلخ هو كناية عن كونه أخوف ؛ إذ ذاك يستلزم كونه كثير الاصطياد عظيم الافتراس ، فإن الأسد إذا كان ذا شبلين كان أكثر افتراساً وأدوم اصطيادا ، [عظيم الافتراس](١) لإشباعهما .

ثم إن كان الضرغام اسماً للجنس بحيث يستوي فيــه الصــغير والكبيــر فالأمر ظاهر ، وإن كان اسماً للكبير فتسمية الشبل ـ وهو ولد الأســـد ـ بــه باعتبــار ما يؤول [إليه](٢) .

والحاصل أنه يقول : إن الرسول صلى الله عليه وسلم حين وضعت يميني في كفه أهيب عندي من أسد خادر ناشيء من بطن عثر ، مسكنه أجمة بقربهــا أجمة أخرى ، حريص على الاصطياد ، شديد فــي الافتــراس لكونــه ذا شــبلين عيشهما لحم من الرجال ممرغ في التراب ، مقطوع قطعاً قطعا .

فإن قيل : لم ذكر أولاده بلفظ التثنية حيث قال : ضرغامين ، ولم يقتصر على ذكر واحد ، ولم يزد على الاثنين ؟ ، فالجواب أنه لم يقتصر على واحــد لأن في إطعام الاثنين زيادة شجاعة على إطعام الواحد بكثرة الاصطياد ، وأمــا عــدم زيادته على الاثنين فلعل الاثنين أكثر ما يلد الأسد .

فإن قيل : لم خص طعامهما بلحم الآدميين ؟ ، فالجواب أن الآدمي أشــد جرأة وأكثر مدافعة عن نفسه من غيره من سائر الحيوانات ، مع ما خُص به من

(١) ساقط من ر .
(٢) ساقط من م .

العقل الذي يحصل به التحيل والتخلص والهرب ، خصوصاً وقد خص ذلك بلحم القوم الذين هم جماعة من الرجال ، مبالغة في الشدة والقوة .

فإن قيل : لم وصف اللحم بكونه يلقى على التراب وكونه قطعاً صغارا ؟ فالجواب أن إلقاءه على التراب دليل على عدم اكتراثه به ، كما تقدم ، وربما دل ذلك على الشبع وعيافة اللحم لكثرته ، وأما كونه قطعاً صغاراً فيحتمل أن ذلك لشدة الجرأة كما تقدمت الإشارة إليه ، ويحتمل أنه يفعل ذلك من باب الحنو على أولاده ليسهل عليهم الأكل ، والله أعلم .

إذا يُساوِرُ قِرْناً لا يَحِلُّ لَهُ ∴ أن يتْرُكَ القِرْنَ إلاّ وَهُوَ مَفلول

(إذا يساور قرنا) أي يواثبه ، بمعنى أنه يثب كل منهما على الآخر ، وهو بضم الياء المثناة تحت وفتح السين المهملة وألف بعدها وكسر الواو وراء مهملة في الآخر ، فعل مضارع من المساورة وهي المواثبة ، والجملة صفة لخادر ، والقِرن بكسر القاف وسكون الراء المهملة ونون في الآخر ، المراد به المقاوم في الشجاعة أوالعلم ، أو غيرهما .

وقوله (لا يحل له أن يترك القرن إلا وهو مفلول) أي لا يتأتى له ، بمعنى أنه يمنع نفسه من النكوص والهرب ، حتى كأنه يحرم عليه ، والمفلول بفتح الميم وسكون الفاء وضم اللام وسكون الواو ولام في الآخر ، معناه المكسور المهزوم ، وأصل الفل الكسر الحسي ، ومنه : فَلُّ الحسام ، وهو ثَلْمُ حَدِّه ، ثم استعمل في غيره اتساعاً مجازا ، ويروى : إلا وهو مجدول بفتح الميم وسكون الجيم وضم الدال المهملة وسكون الواو ولام في الآخر ، والمراد الملقى على الجَدَالَة ، وهي الأرض ، أي ملقى على التراب .

معنى البيت أن هذا الأسد إذا التقى مع مقاوم له في الشجاعة لا يستجيز في طريق الشجاعة أن يعرض عنه حتى يكسره ويهزمه على الرواية الأولى ، أو يدعه طريحاً ملقى على الرواية الثانية ، وإذا كان بهذه الصفة كان جديراً بأن يهاب ، وقد وقعت فيه المتابعة بالشجاعة من وجهين ، الأول أنه لا يساور ضعيفاً ولا جبانا ، بل إنما يساور مقاوِمَهُ في الشجاعة ومساويه في القوة ، وهذه طريقة الشجعان في الحرب ، حتى أن أحدهم إذا برز له من هو دونه في الشجاعة لا يبرز له ولا يقابله ، الوجه الثاني أنه يربو بنفسه عن أن يعرِض عنه ، أو يولي حتى يقهره ويغلبه ، وهذه أتم حالات الشجعان ، وكذلك كان من خصائصه صلى الله عليه وسلم أنه لا يجوز له أن يولي عن العدو ولو كانوا ألوفا ، ولم يعرف له صلى الله عليه وسلم أنه أدبر يوماً في الحرب ولا ولى ، والله أعلم .

مِنْهُ تَظَلّ سِباعُ الجَوِّ ضَامِزَةً ، ∴

ولاَ تُمَشَّى بِواديهِ الأرَاجِيل

(منه) بالإشباع ، ومن تقليلية ، والجملة صفة لخادر ، والضمير له .

و (تظل) بفتح التاء والظاء ، ومعناه لا تزال .

و (السباع) جمع سبع ، وهو في الأصل اسم لكل حيوان كاسر ، ثم غلب استعماله في الأسد .

و (الجو) ما بين السماء والأرض ، وما اتسع من الأودية ، وهو المراد هنا ، وقيل : الجو البر الواسع .

و (الضامز) بضاد معجمة فزاي ، الساكت ، وفي القاموس : ضمز يَضْمِزُ ويَضْمُزُ من باب ضرب ونصر : سكت ولم يتكلم ، فهو ضامز وضموز ، وضمز البعير إذا أمسك جِرَّتَه في فيه ولم يجتر[1] ، كذا ذكره أكثر الشراح ، وقال

---

(١) ينظر : القاموس المحيط ص٥١٥ .

بعضهم : إن الرواية بالضاد والراء المهملة ، يعني أنه يصف كمال مهابة ذلك الخادر ، بحيث أن سباع الوادي تظل جياعاً لعدم اقتدارها على الاصطياد خوفاً منه .

(ولا تُمَشَّى) بضم المثناة الفوقية وفتح الميم وتشديد الشين المعجمة المكسورة ، بمعنى تمشي ، والباء في : بواديه بمعنى في ، أي في وادي ذلك الخادر .

و (الأراجيل) جمع أرجال ، كالأناعيم جمع أنعام ، وأرجال جمع رَجْل ، كالأفراخ جمع فرخ ، ورجل اسمع جمع لراجل ، وهو ضد الفارس ، كالصحب جمع صاحب .

ومعنى البيت أن هذا الأسد لشجاعته لا تزال سباع البر ساكتة من هيبته ، والرجال لا تمشي بواديه خوفاً منه وحذرا ، وهذا أعلى ما يكون من الهيبة والشجاعة ، وهو أن يهابه جنس السباع حتى لا يستطيع كل منهم حركة خوفاً منه وحذرا ، وغير جنسه من بني آدم الذين هم أشد جرأة وإقداماً من سائر الحيوانات لا يستطيع أحد منهم أن يمر بواديه الذي يقيم به ، والله أعلم .

وَلاَ يَزَالُ بِوَادِيهِ أَخو ثِقَةٍ ، ∴

مُطرَّحُ البزِّ ، والدِّرْسانِ ، مأكول

هذا البيت في توسط خبر زال ، كقول الشاعر :

ألاّ يا اسْلَمِي يا دارَ مَيٍّ على البِلَا ∴ ولا زال مُنْهَلاًّ بجَرْعائِك القطرُ[(١)]

وذلك لان (بواديه[(٢)]) بالإشباع خبر مقدم .

(١) البيت لذي الرُّمَّة ، غيلان بن عقبة (ينظر : الأغاني ٥/٢٥١)

(٢) في م : يراد به .

و (أخو ثقة) مضاف ومضاف إليه ، اسمها مؤخر ، والمراد بـه هنـا الشجاع الواثق بشجاعة نفسه ، فكأنه يؤاخي الوثوق بنفسه ويلازمه .

و (مطرح) بضم الميم وفتح الطاء المهملة وتشـديد الـراء المهملـة المفتوحة وحاء مهملة في الآخر ، صفة له ، وإن كان نكرة ، لأن إضافة مطـرح ليست محضة ، فهو نكرة أيضا .

و (البز) بفتح الباء وبالزاي المشددة ، مشترك بين أمتعة البزازين وبين السلاح ، وهو المقصود هنا .

و(الدرسان) إخلاق الثياب ، وهو معطوف على البز ، وأحرفه مهملات، مكسور الأول ، جمع درس ، بالكسر أيضا ، وهو الدريس، أي الثوب الخلق الذي قد درس ، ومثله في تكسير فِعْل على فِعْلَان : صِنْو وصنوان، وقنو وقنوان .

و (مأكول) صفة ثانية لأخو ثقة ، أي مأكول لذلك الخادر ، والحاصل أنه يصف ذلك الخادر بأنه لا يأتي عليه زمان إلا ويوجد في أواديه شـجاع ذو ثقـة بشجاعة نفسه مطروح سلاحه ، يكون ذلك الخادر قد أكل ذلك الشـجاع فـانطرح سلاحه وتمزقت ثيابه ، أو طارح هو سلاحه وثيابه الممزقة ، وذلك يستلزم كون ذلك الخادر أشد مهابة وأكثر مخافة ، فالمراد أن هذا الخادر الذي شبه به النبـي صلى الله عليه وسلم لم يمر بواديه شجاع إلا أكله وطرح سلاحه ومزق ثيابـه ، لكونه لا يولع إلا بالشجعان ، ولا يلتفت إلى غيرهم ، والله أعلم .

إنّ الرّسولَ لسيفٌ يُسْتَضَاءُ بهِ ، ∴

مهندٌ من سيوفِ اللّهِ مَسْلُولُ

لما فرغ من وصف الأسد الذي جعل الرسول صلى الله عليه وسلم أشد هيبة من هيبته رجع إلى تمام مدحه للنبي صلى الله عليه وسلم فقال إن الرسول لسيف ، أي كسيف قاطع في دفع الباطل ودمغه .

وقوله (يستضاء به) أي يهتدى به إلى الحق ، من حيث أنه يخيف الكفار فيدخلون في الإسلام ، وفي نسخة : لنور يستضاء به ، وهي ظاهرة .

و (مهند) بضم الميم وفتح الهاء وتشديد النون المفتوحة ودال مهملة في الآخر ، أي منسوب إلى الهند ، وإنما نسب إليه لأن سيوف الهند أفضل السيوف وأحسنها .

وقوله (من سيوف الله) معناه أنه عليه الصلاة والسلام كسيف قاطع للخصام من سيوف عظمها الله بنيل الظفر والانتقام ، وروي أن كعباً رضي الله عنه أنشده أولاً :من سيوف الهند ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :من سيوف الله [(١)].

وقوله (مسلول) أي مصلتاً من غمده .

ومعنى البيت أنه صلى الله عليه وسلم في الاقتداء به إلى الحق كالسيف المهند المسلول ، وذلك أنه كان من عادة العرب أنهم إذا أرادوا استدعاء من حولهم من القوم في ليل أو نهار شهروا السيف الصقيل فبرق فظهر لمعانه من بعد فيأتون إليه مهتدين بنوره ، ومؤتمين بهديه ، والنبي صلى الله عليه وسلم لما جاء بالنور المبين والمعجزات الظاهرة ودعى الناس إليه أتوا مهتدين بنوره

(١) ذكره الصالحي في سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ٤٧٣/١ تحقيق عادل عبد الموجود ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ ، دون سند .

الساطع ، ومؤتمين بضيائه اللامع ، وقد ورد من هذا المعنى في القرآن : " يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا " (١)فشبهه بالسراج المنير عندما وصفه بكونه داعيا إلى الله بإذنه ، وروي أن كعباً لما وصل إلى قوله : إن الرسول لسيف يستضاء به ... ، رمى صلى الله عليه وسلم إليه بردة كانت عليه(٢) ، وأن معاوية بذل له فيها عشرة آلاف ، فقال كعب : ما كنت لأوثر بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدا ، فلما مات كعب بعث معاوية إلى ورثته عشرين ألفاً وأخذها منهم ، وهي البردة التي عند السلاطين إلى اليوم ، ذكره ابن جماعة .

وفي العوارف : أن تلك البردة كساء أسود مربع ، وهي البردة الباقية عند خلفاء بغداد يتوارثونها كابراً عن كابر ، انتهى ، وقيل هي التي كانت عند الخلفاء ، من معاوية وصلت إلى بني أمية ، ثم إلى بني العباس ، وحكي أنها اليوم عند سلاطين الأروام والله أعلم .

في فتيةٍ من قَريشٍ قال قائلُهم ، ∴

بِبَطْنِ مكّة ، لما أسلموا : زُولوا

لما فرغ من مدح النبي صلى الله عليه وسلم أخذ في مدح المهاجرين من الصحابة رضي الله عنهم ، فقال :

(في فتية) جار ومجرور ، خبر آخر عن إن ، والفتية جمع فتى ، وهو السخي الكريم وإن كان شيخا ، ويجمع أيضاً على فتيان .

و (من قريش) صفة لفتية ، ويروى: في عصبة من قريش ، والعصبة الجماعة من العشرة إلى الأربعين ، ومن تبعيضية ، أي هذه الفتية بعض قريش ،

---

(١) سورة الأحزاب الآية : ٤٦ .

(٢) لم يصح أي خبر في إعطاء النبي بردته لكعب .

والمراد بها المسلمون منهم ، وخص قريشاً بالذكر لأن غالب المهاجرين كانوا منهم .

(قال قائلهم) أي القائل الذي هو من جملتهم ، والجملة صفة ثانية لفتية، واختلف في ذلك القائل ، قيل هو حمزة بن عبد المطلب ، وقيل هو عمر بن الخطاب .

وقوله (ببطن مكة) الباء بمعنى في ، متعلقة بقال ، وبطنها واديها وبطحاؤها ، ومكة اسم للبلد الحرام ، ويقال لها : بكة ، بالباء بدل الميم ، وبهما جاء القرآن الكريم ، قال تعالى : " وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ " (١)وقال عز وجل : " إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا "(٢) وقيل : بالميم الحرم كله ، وبالباء المسجد ، وقيل : بالباء اسم لموضع الطواف خاصة .

و (لما) بمعنى حين ، متعلقة بقال .

و (زولوا) فعل أمر ، وفاعله والجملة مقول القول ، أي تحولوا وانتقلوا من مكة إلى المدينة ، فهو أمر لهم بالهجرة .

ومعنى البيت أن الرسول سيف مهند كائن في جماعة من قريش ، أو مبعوث فيهم ، وأنه لما أسلم بمكة من قريش من أسلم اختاروا الهجرة من أوطانهم التي بمكة والخروج إلى غيرها من البلدان ليفوزوا بدينهم .

وقد اتفق المؤرخون وأصحاب السير على أن أول من أسلم خديجة بنت خويلد زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم اختلف فيمن أسلم بعدها ، فقيل علي بن أبي طالب ، وعمره تسع سنين ، وقيل عشر سنين ، وقيل إحدى عشرة سنة ، وكان في حجر الرسول صلى الله عليه وسلم قبل الإسلام يربيه ، ثم أسلم بعد علي

(١) سورة الفتح الآية : ٢٤ .

(٢) سورة آل عمران الآية : ٩٦ .

زيد بن حارثة ، مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان قد اشتراه وأعتقه، ثم أسلم بعد ذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، وقيل أول من أسلم أبو بكـــر ، ثم أسلم بعده عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بـــن أبـــي وقـــاص والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله ، ثم أبو عبيدة بن الجـــراح وعبيـــدة بـــن الحارث وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وعبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر ، ثم أسلم حمزة بن عبد المطلب بعده ، وهو الباعث لهم والحاث لهم على الهجرة ، وإليه الإشارة بقوله في البيت :قال قائلهم .. .

قال السهيلي[١] : وحين أنشد كعب إن الرسول لنور يستضاء به .... إلى قوله : زولوا ، نظر عليه الصلاة والسلام إلى أصحابه كالمعجب لهـــم مـــن حسن مقوله وجودة شعره وكماله في حاله ، وقال لهـــم : اســـمعوا ، أخرجـــه الحاكم[٢] والبيهقي[٣] .

وقد يؤخذ من هذا الأمر استحباب سماع هذه القصيدة لما اشتملت عليه من نعوت الحضرة المصطفوية ، وأوصاف أصحابه المرضـــية ، وغيرهـــا مـــن الفضائل البهية ، والشمائل السنية ، ومعرفة القواعد العربية ، والفوائد الأدبية ، إلى غير ذلك .

زَالوا ، فما زالَ أنكاسٌ ، ولا كُشُفٌ ، ∴

عِنْدَ اللّقاءِ ، ولا مِيلٌ مَعازيل

(١) عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد الخثعميّ السهيليّ ، حافظ، عالم باللغة والسير، ضرير، ولد في مالقة بالأندلس سنة ٥٠٨هـ ، وتوفي في المغرب سنة ٥١٨هـ (ينظر : وفيات الأعيان ١/٢٨٠)

(٢) المستدرك ٣/٦٧١ ح ٦٤٩٧ وصححه ، ووافقه الذهبي .

(٣) سنن البيهقي الكبري ١٠ / ٢٤٣ ح ٢٠٩٣١ تحقيق محمد عبد القادر عطـــا ، الناشـــر مكتبة دار الباز ، مكة المكرمة ١٩٩٤م .

(زال) هذه تامة ، معناها ذهبوا وهاجروا ، وهي التي بني منها الأمر في البيت السابق ، ومضارعها يزول ، وقد اجتمع الماضي والمضارع في قوله تعالى : " إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ "(١) وأما الناقصة فمضارعها يزال ، قال تعالى : " وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ "(٢) ولا تقع إلا بعد نفي أو نهي .

و (الأنكاس) بفتح الهمزة ، جمع نِكْس ، بكسر النون ، وهو الرجل الضعيف المهين ، شبه بالنكس من السهام ، وهو الذي انكسر فُوقُهُ فجُعل أعلاه أسفله .

و (الكشف) بضم الكاف والشين المعجمة ، جمع أكشف ، وهو الذي لا ترس معه في الحرب ، وفي القاموس : الذي [لا](٣) ترس معه في الحرب ، ومن ينهزم في الحرب ، ومن لا بيضة على رأسه (٤)، فضبط الشراح لما هنا بضم الشين لعله لضرورة الوزن ، وإلا فالقياس أن يكون بسكونها ، على حد قوله فُعْل لنحو : أحمر وحُمْر .

و (عند اللقاء) ظرف لقوله : ما زال ، أي حال ملاقاة الأعداء ومحاربتهم .

و (الميل) بكسر الميم ، جمع أميل ، وله معنيان كل منهما صالح هنا ، أحدهما الذي لا سبق معه ، والثاني الذي لا يحسن الركوب ولا يستقر على السرج، ووزن ميل فعل ، بضم أوله ، والكسرة عارضة لتسلم الياء ، ومثله بيض.

---

(١) سورة فاطر الآية : ٤١ .

(٢) سورة هود الآية : ١١٨.

(٣) ساقط من م .

(٤) القاموس المحيط ص ٨٤٩.

و (المعازيل) جمع معزال ، وهو الذي لا سلاح معه ، أو هو الضعيف الأحمق ، والمعنى هنا على العطف ، والتقدير : ولا معازيل .

هذا والبيت كناية عن قوة شجاعتهم ، وغاية فخامتهم ؛ لأنه يدل على أنهم زالوا عن أماكنهم وانتقلوا عن أوطانهم ، وعند المحاربة لم يزل عن مكان الحرب ضعفاؤهم ممن ليس معهم ترس ولا سيف ولا رمح ، فكيف أقوياؤهم من أصحاب الدروع والأسياف والأتراس والرماح ، فعدم زوالهم عن مكانهم من لوازم غاية الشجاعة ، ونهاية الجرأة والفخامة ، إذ المصابرة على المحاربة في أرض الغير أشق وأصعب .

وقيل : المعنى هاجروا من مكة إلى المدينة وليس فيهم من هذه صفته ، بل المهاجرون بأسرهم أقوياء ذوو أسلحة ، كلما سمعوا صيحة طاروا إليها وقاموا عليها وثبتوا لديها ، والأول أولى ، كما لا يخفى .

واعلم أن للمؤمنين هجرتين ، الأولى أرض الحبشة ، فهاجر منهم جماعة، وذلك أنه لما اشتد أذى قريش بمن أسلم بمكة أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن ليست له عشيرة تحميه بالهجرة إلى أرض الحبشة فهاجر منهم جماعة ، وأقاموا في جوار النجاشي فأحسن نزلهم وعاملهم بالكرامة ، وكان من جملة من هاجر منهم إلى الحبشة على التتابع ثلاثة وثمانون رجلا ، منهم عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعثمان بن مظعون ، وعبد الله بن مسعود ، وعبد الرحمن بن عوف ، وجعفر بن أبي طالب ، وجماعة من النسوة منهم رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم مع زوجها عثمان بن عفان ، وأرسلت قريش للنجاشي في طلبهم ، وهادوه على ذلك فلم يمكِّن منهم ، الهجرة الثانية إلى المدينة الشريفة ، وهي التي بني عليها التاريخ الإسلامي ، وكان ابتداء أمرها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعرض نفسه على القبائل في موسم الحج ، ويدعوهم إلى الله تعالى ، ويقول : " يا بني فلان ، إني رسول الله إليكم أن تعبدوا

الله وحده ولا تشركوا به شيئا ، وأن تتركوا ما تعبدون من دونه ، وأن تؤمنوا بي وتصدقوني "[١] فاتفق أنه خرج في الموسم فلقي ستة من رجال الخزرج من أهل المدينة ، فعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن ، فآمنوا به ، ثم انصرفوا إلى المدينة فدعوا قومهم إلى الإسلام فأسلم منهم الكثير ، وفشا فيهم الإسلام ، ولم يبق دار إلا وفيها ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلما كان بالعام الآخر لقي النبي صلى الله عليه وسلم بالموسم اثني عشر رجلا من الأنصار ، فبايعهم على ألا يشركوا بالله شيئا ، ولا يسرقوا ، ولا يزنوا ، ولا يقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وبعث معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار فعلمهم شرائع الإسلام والقرآن ، فلما قدم مصعب المدينة دعا من بها إلى الإسلام ، فكان ممن أسلم على يديه سعد بن معاذ سيد الأوس ، وحمل قومه على الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم فآمنوا به على آخرهم ، وفشا الإسلام بالمدينة حتى لم يبق فيها دار من دور الأنصار إلا دخلها الإسلام ، ثم عاد مصعب بن عمير إلى مكة بعد ذلك في ثلاثة وسبعين رجلا ممن أسلم من الأنصار ، بعضهم من الأوس وبعضهم من الخزرج ، فاجتمعوا بالنبي صلى الله عليه وسلم عند العقبة ومعه عمه العباس قبل أن يسلم ، فاستوثق منهم العباس للنبي صلى الله عليه وسلم على أنهم لا يخذلونه ولا يسلمونه ، فقالوا : ما لنا إن قُتِلنا دونك يا رسول الله ؟ قال : الجنة ، فقالوا : فابسط يدك لنبايعك ، فبايعوه على ذلك وانصرفوا راجعين إلى المدينة .

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه بالهجرة إلى المدينة فخرجوا متتابعين ، وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ينتظر حتى يأذن له ربه في الخروج من مكة ومعه أبو بكر الصديق وعلي بن أبي طالب ، ثم خرج

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٤٩٢/٣ ح ١٦٠٦٨ وحسنه علوي السقاف في تخريجه لأحاديث الظلال ٥٤٢/١ الناشر : دار الهجرة للنشر والتوزيع ، الطبعة الثانية ١٩٩٥م .

النبي صلى الله عليه وسلم من مكة ليلاً ومعه أبو بكر الصديق ، وأقاما بغار جبل ثور أسفل مكة بثلاثة أيام ، ثم خرجا من الغار وتوجها إلى المدينة ، وجدت قريش في طلبهما ، فلحقهما سراقة بن مالك المدلجي[١] ، فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فغاصت فرسه في الأرض إلى بطنها ، فرغب إلى النبي صلى الله عليه وسلم في أن يسأل الله في خلاصه ، ففعل ، فتركهما ورجع ورد كل من لقيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقام علي بعد النبي صلى الله عليه وسلم بمكة إلى أن أدى ودائع للناس كانت عند النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قدم المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم كان بعد ذلك فتح مكة وغيرها .

شُمُّ العَرانين ، أبْطالٌ، لَبوسُهُمُ ∴

من نَسْجِ داودَ ، في الهَيْجا، سَرَابِيل

(شم) بضم أوله ، جمع أشم ، كصم وأصم ، وهو خبر مبتدأ محذوف ، أي هم شم ، وهو الذي في قصبة أنفه علو مع استواء أعلاه ، والمصدر الشمم ، وأصله الارتفاع مطلقا .

(العرانين) بفتح أوله ، جمع عرنين ، بكسره ، وهو الأنف .

و (الأبطال) صفة ، أو خبر ثان ، جمع بطل ، بفتحتين ، وهو من تبطل عنده (دماء خصمه وتذهب هدرا ، ولا يدرك له بالثأر ، وقيل : هو الذي تبطل فيه الحيل ، فلا يتوصل إليه .

وقوله (لبوسهم) بفتح اللام وإشباع الميم ، ما يلبس من السلاح ، وهو مبتدأ خبره : من نسج داود .

(١) سراقة بن مالك بن جشعم المدلجي ، أسلم بعد غزوة الطائف ومات سنة ٢٤ هـ (ينظر : الأعلام ٣/٨٠)

و (النسج) المنسوج .

و (داود) النبي صلى الله عليه وسلم ، والمراد بنسجه : الدروع .

و (في الهيجا) صفة للمبتدأ ، أو حال من المضاف إليه ، أي لبوسهم حال كونهم في الهيجاء هو الدروع ، والهيجاء بالمد والقصر ، لكنه هنا مقصور للوزن ، وهي الحرب .

(سرابيل) خبر آخر ، أو : من نسج صفة لبوسهم ، وسرابيل هو الخبر، وفي المصباح : السربال قميص أو درع ، والجمع سرابيل .

ومعنى البيت أنهم في الناس ذوو رفعة وعلو مقدار ، وفي الحرب في غاية من الشجاعة ومنعة من السلاح ، وقد وقع مدحهم في هذا البيت من ثلاثة أوجه :

الوجه الأول : كونهم شم العرانين ، وهو محتمل لمعنيين ، أحدهما أنه أراد أن يكونوا شم العرانين التي هي الأنوف حقيقة ، وهي من الأوصاف الحميدة التي في تكوين خلق الإنسان ، وقد جاء في وصف النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان أشم العِرْنِين[1] ، والثاني أن يكون قد استعار ذلك لرفعة القدر والعلو ؛ لأنه يقال للرجل المرتفع القدر : في أنفه شمم .

الوجه الثاني : كونهم أبطالا ، وهو من أوصاف الشجعان ، ولا شك أن الشجاعة من أحمد الأوصاف التي يتمدح بها ويقع الافتخار بسببها ، وفيه تقرير لما تقدم من معنى البيت الذي قبله من أنهم لم يخرجوا من مكة عن ضعف ولا مهانة ، وإنما خرجوا طاعة لله ورسوله .

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٢٥٩/٤ تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ، الناشر : مكتبة ابن تيمية ، القاهرة الطبعة الثانية ، وقال الذهبي : في سنده من لا يُعرف .

الوجه الثالث : أن لبوسهم في الحرب كانت من أصنع الدروع وأمنعها ؛ لأنه أضافها لنسج داود نبي الله عليه السلام ، ولا شك أن دروعه أحكم الدروع صنعة ، ضرورة تليين الحديد له ، وصدور تعليمه من قبل الله تعالى ، قال تعالى: " وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ "(١) وقال تعالى: " ... وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ..." (٢) الآية .

بِيضٌ سَوابغُ قدْ شُكّتْ لها حَلَقٌ ، ∴

كأنّها حَلَقُ القَفعاءِ ، مَجْدول

(بيض سوابغ) صفتان لسرابيل ، ومعنى بيض مجلوة صافية ، ومعنى سوابغ طوال تامة ، ومفردهما أبيض وسابغ .

وقوله (قد شكت) وأصل الشك إدخال الشيء في الشيء ، وإنما يكون ذلك في الدروع المضاعفة ، والمراد هنا إدخال بعض حلقها في بعض ، أي أُدخل بعضها في بعض ، ويروى : سُكّت ، بالسين المهملة ، أي أضيقت ، يعني أن حلق الدروع قد ضيق بينهما ، والشكك الضيق ، ومنه : أُذُنٌ سُكّا ، وهي الضيقة، من قولهم : استكت الأذن ، إذا استدت ، وهذه الجملة الفعلية صفة ثالثة لسرابيل، ويحتمل أن حلق نائب فاعل شكت ، ويكون الكلام جملة واحدة ، واللام في لها بمعنى من متعلقة بشكت ، أي ضيق منها حلق .

و (الحلق) بفتحتين ، جمع حلقة بالإسكان ، على غير قياس ، هذا هو الصحيح ، وخالف الأصمعي في الجمع فقال : حِلَق ، بكسر الحاء ، كبَدرة وبِدَر ، وقصعة وقِصَع

---

(١) سورة الأنبياء الآية : ٨٠ .

(٢) سورة سبأ الآية : ١١ .

وخالف أبو عمرو في المفرد فقال : حَلَقة ، بالفتح ، وقال أبو عمرو الشيباني [١]: ليس في الكلام حلقة بالتحريك إلا جمع حالق .

و (القفعاء) بفتح القاف وسكون الفاء وفتح العين المهملة والمد ، شجر ينبسط على وجه الأرض له حلق يشبه به حلق الدروع .

وجملة (كأنها) نعت لحلق ، والرابط الضمير من كأنها ، أي الحلق .

وقوله (مجدول) أي محكم الصنعة ، وهو صفة ثانية لحلق ، وفيه الوصف بالمفرد بعد الوصف بالجملة ، وهو جائز فصيح ، ومنه قوله تعالى : " فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ"[٢] لكن فيه أن الموصوف وهو حلق جمع، والصفة وهي مجدول مفردة، ويجاب بأن المعنى: مجدول كل واحدة من ذلك الحلق.

ومعنى البيت أن دروعهم مجلوة صافية طويلة مشتكة الصنعة تداخل بعضها في بعض أشد تداخل ، ويكون المدح لهم في هذا البيت من ثلاثة أوجه :

الوجه الأول : أنهم يديمون الحرب ؛ لأن الحديد كلما استعمل انصقل وابيض ولم يركبه الصدأ .

الوجه الثاني : أنهم في غاية القوة ؛ لأن الدروع إذا كانت طويلة تامة كانت أثقل ضرورة ، وحملها في الحرب مع ثقلها يدل على الشدة والقوة .

الوجه الثالث : أن لهم اعتناء بآلة الحرب ، حيث لم يتخذوا منها إلا المحكم الصنعة العزيز الوجود.

---

(١) إسحاق بن مرار الشيبانيّ بالولاء، أبو عمرو ، لغويّ أديب، من رمادة الكوفة سكن بغداد ومات بها سنة ٢٠٦هـ (ينظر : ميزان الاعتدال ٣/٣٧٣)

(٢) سورة المائدة الآية : ٥٤ .

لاَ يَفْرَحُونَ ، إذا نَالَتْ رِمَاحُهُمُ ∴

قَوْما، وَلَيْسوا مَجَازيعاً إذا نِيلوا

(الفرح) معروف ، وكذلك الرماح .

وقوله (نالت) أي أصابت .

(رماحهم) بالإشباع ، فاعل .

و (قوماً) مفعول به ، وتقدم أنهم الجماعة من الرجال .

و (المجازيع) بفتح الميم والجيم وبزاي معجمة وسكون الياء وعين مهملة ، جمع مجزاع ، بكسر الميم ، وهو الكثير الجزع ، أي الخوف ، وهو هنا مصروف للضرورة .

(إذا نيلوا) أي أصيبوا ، والمعنى أنهم إذا أصابوا وغلبوا عدوهم لا يفرحون ، وإذا غلبوا منه لا يجزعون من لقائه ثانيا ، ويكون المدح قد وقع فيه من وجهين :

الأول : أنهم يكثرون الظفر بالأعداء ، فإذا وقع لهم ظفر بعدو لا يفرحون به ؛ لأن ذلك من عادتهم ، والفرح إنما يكون بالشيء النادر القليل الوقوع .

الوجه الثاني : أنهم كبيرو الهمم ، وفيهم الصبر والجلادة على الحرب ، بحيث إذا ظفر فيهم العدو وغلبهم لا يمنعهم ذلك من ملاقاته مرة ثانية خوفاً وجزعا .

يَمْشُونَ مَشْيَ الجِمَالِ الزُّهرِ، يعصِمهم ∴

ضَربٌ، إذا عَرّدَ السُّودُ التّنابِيل

يصفهم بامتداد القامة وعظم الخلق وبياض البشرة والرفق في المشي ، وذلك دليل على الوقار ، والسؤدد .

و (الزهر) بضم الزاي ، جمع أزهر ، وهو الأبيض ، يعني أنهم سادات لا عبيد ، وعرب لا أعراب .

و (مشي) مصدر مبين للنوع ، وهو في الأصل نائب عن صفة مصدر محذوف ، أي مشياً مثل مشي الجمال .

(يعصمهم) أي يمنعهم ، ومنه " سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ "(١) والمعنى يحميهم من أعدائهم ويمنعهم .

(ضرب) أي ضربهم الأعداء بالسيوف والرماح لا التحصن بالحصون والقلاع ، وقد تنازع في إذا قوله : يمشون ، ويعصمهم .

و (عرد) بفتح العين المهملة وتشديد الراء في آخره دال ، معناه فر وأعرض ، ويروى : غرد ، بغين معجمة ، بمعنى طرب بالرجز والشعر عند القتال .

و (السود) جمع أسود ، والمراد بهم الكفار .

و (التنابيل) بفتح المثناة الفوقية ثم نون ثم ألف بعدها باء موحدة مكسورة وياء مثناة تحت ساكنة ولام ، جمع تنبال ، كتمساح ، وهو القصير .

والبيت كناية عن كمال شجاعتهم ، إذ المعنى يسرعون إلى الهيجا إسراع الجمال وقت فرار القوم ، يعصمهم من الأعداء في ذلك الوقت ضربهم إياهم بالسيوف والرماح ، لا حصون يفرون إليها ، ولا جماعة يستعينون بها ، ولا يخفى أن الإسراع وقت فرار القوم من لوازم كمال الشجاعة وغاية الرسوخ في أمر المحاربة ، والله أعلم .

---

(١) سورة هود الآية : ٤٣ .

لا يَقَعُ الطّعْنُ إلاّ في نُحُورِهِمُ ، ∴

وما لَهُمْ عنْ حِياضِ المَوْتِ تَهْلِيل

وصفهم بأنهم لا ينهزمون فيقع الطعن في ظهورهم ، بل يقدمون على أعدائهم فلا يقع الطعن إلا في نحورهم ، بإشباع الميم ، أي صدورهم .

(وما لهم) ما نافية ، أي ليس لهم تهليل ، أي تأخر .

(عن حياض الموت) بالضاد المعجمة ، والمراد الأمكنة التي فيها مجتمعه ، كحوض الماء الذي فيه مجتمعه ، أي لا يتأخرون عنها إذا تأخر غيرهم ونكص عنها .

وروي بالصاد المهملة ، جمع حَوْص ، وحياص الموت مضائقه وشدائده، وجملة وما لهم عطف على الفعلية ، أو حال من المضاف إليه ، وهو الضمير في نحورهم ، أو معترضة للمدح ، وفي رواية : فما لهم ، بالفاء ، وعن حياض متعلق بتهليل الرافع مبتدأً مؤخرا .

روي أنه لما أنشد كعب هذ البيت نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى من كان بحضرته من قريش ، كأنه يومئ إليهم أن اسمعوا(١) .

ولا يخفى على أرباب الصفاء ما في القصيدة من حسن المقطع والمطلع ، وصنعة تشابه الأطراف ، وغيره من بدائع الأصناف ، حيث ختم الكلام في المبنى بما يناسب ابتداء المرام في المعنى ، فإنه قد ابتدأ بذكر الفراق والجفاء ، وختم بذكر الموت والفناء ، منبهاً على سبب الشهادة الموجبة للقاء في دار البقاء ، ولا ارتياب في أنه ليس بين الموت والفراق فرق عند أرباب الاشتياق ، فبلغ القصيد من الحسن أقصى غايته ، وانتهى إلى منتهى نهايته ، فنسأل الله العافية

(١) ينظر : السيرة النبوية لابن كثير ٧٠٧/٣ تحقيق مصطفى عبد الواحد ، الناشر : دار المعرفة ، بيروت ١٩٧٦ م .

في الدنيا والآخرة ، وحسن الخاتمة في حال الرجوع إلى العقبى ، وأن يتفضل علينا بالجزاء الأوفى ، وأن يبلغنا المقام الأسنى ، ويلحقنا بالرفيق الأعلى من الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين علماً وعملاً وتصديقاً وتحقيقاً وتوفيقا ، وحسن أولئك رفيقا .

وقد تم شرح بانت سعاد ، بحمد الله مع الخير والإسعاد

أيها الناظرُ فيه بالذي ∴ أنْشَأَ العالَمَ مِنْ غيرِ مَلَلْ

إنْ تَجِد عيباً به كُنْ ساتِرا ∴ إنَّ خيرَ الناسِ مَنْ سَدَّ الخَلَلْ

والحمد لله أولاً وآخرا [والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم ، تم هذا الشرح الشريف ضحوة يوم السبت ، منتصف جمادى الأولى سنة ست وسبعين ومائتين وألف ، بقلم الراجي من ربه الكريم الآمال عبد القادر الحبال ، غفر الله له ولوالديه ولمشايخه ولمن دعا لهم بالمغفرة ، ولكافة المسلمين أجمعين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين ، والحمد لله رب العالمين ، آمين آمين آمين][1]

(١) ما بين المعقوفتين ساقط من م .

فهرس المصادر

* أدب الكتاب لابن قتيبة الدينوري ، تحقيق محمد الدالي ، ط : مؤسسة الرسالة بيروت .

* أسرار التنزيل وأنوار التأويل ، فخر الدين الرازي ، الناشر : مكتبة الثقافة الدينية ، الطبعة الأولى ٢٠١٢م .

* الأعلام ، خير الدين الزركلي ط : دار العلم للملايين بيروت ، الطبعة الخامسة عشرة ٢٠٠٢م .

* الأغاني ، أبو الفرج الأصفهاني ، تحقيق سمير جابر وآخرين ، ط : دار الفكر، بيروت الطبعة الثانية .

* أنساب الأشراف للبلاذري ، تحقيق سهيل زكار ورياض الزركلي ، ط : دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩٦م .

* الأوائل لأبي هلال العسكري ، ط : دار البشير ، طنطا ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ

* البداية والنهاية لابن كثير الدمشقي ، تحقيق علي شيري ط : دار إحياء التراث العربي ، الطبعة الأولى ١٩٨٨م

* بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط: المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت .

* تاج العروس للزبيدي ، تحقيق مجموعة محققين ، الناشر : دار الهداية ، مصر .

* تاريخ بغداد ، الخطيب البغدادي ، تحقيق بشار عواد معروف ، ط : دار الغرب الإسلامي ، بيروت الطبعة الأولى ٢٠٠٢ م .

* في تاريخ دمشق ، أبو القاسم بن عساكر ، تحقيق عمرو بن غرامة العمروي، الناشر : دار الفكر ، بيروت ١٩٩٥م .

* تاريخ الطبري ، الناشر دار التراث ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٣٨٧هـ .

* تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، عبد الرحمن الجبرتي ، ط : دار الجيل ، بيروت لبنان .

* تاريخ ابن الوردي الناشر : دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩٦م

* الجامع الصغير للسيوطي الناشر : المكتب الإسلامي .

* جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري الناشر : دار الفكر بيروت .

* جمهرة أنساب العرب لابن حزم الظاهري ط : دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨٣م .

* جهود سليمان الجمل الصرفية في حاشيته على تفسير الجلالين ، فيحاء قحطان النعيمي ، منشورات جامعة تكريت العراق ٢٠١٢م .

* حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر ، عبد الرازق البيطار ، تحقيق محمد بهجة البيطار ، ط : دار صادر بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٩٣م .

* سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ، محمد بن يوسف الصالحي ، تحقيق عادل عبد الموجود ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ

* خزانة الأدب لعبد القادر البغدادي ، تحقيق محمد نبيل طريفي ، ط : دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٩٨م .

* سنن الترمذي تحقيق أحمد شاكر وآخرين ، ط : دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

* سنن الدارمي في مسنده ، تحقيق فواز أحمد زملي وخالد السبع العلمي ، الناشر : دار الكتاب العربي ، بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ

* سنن البيهقي الكبري ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ، الناشر مكتبة دار الباز، مكة المكرمة ١٩٩٤م .

* السيرة النبوية لابن كثير ، تحقيق مصطفى عبد الواحد ، الناشر : دار المعرفة، بيروت ١٩٧٦ م .

* شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ، تحقيق محمود الأرناؤوط ، الناشر : دار ابن كثير ، دمشق ، الطبعة الأولى ١٩٨٦م .

* شرح بانت سعاد لابن هشام الأنصاري ، دراسة وتحقيق الدكتور عبد الله عبد القادر الطويل ، ط : المكتبة الإسلامية ، مصر ، الطبعة الأولى ٢٠١٠م .

* شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية ط : دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ١٩٩٦م .

* الشمائل المحمدية ، الترمذي ، تحقيق سيد بن عباس الجليمي ، ط : المكتبة التجارية ، مكة المكرمة الطبعة الأولى ١٩٩٣م .

* الصحاح للجوهري ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطا ، ط : دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الرابعة ١٩٨٧م

* صحيح البخاري ، تحقيق محمد زهير ناصر ، ط : دار طوق النجاة ، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ .

* صحيح مسلم ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، الناشر : دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

* الطبقات الكبرى ـ الجزء المتمم ـ لمحمد بن سعد تحقيق زياد المنصور ، الناشر : مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة ١٤٠٨هـ .

* فصل المقال في شرح كتاب الأمثال لأبي عبيد البكري ط : مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٨٣م

* فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات ، عبد الحي الكتاني ، تحقيق إحسان عباس ، ط : دار الغرب الإسلامي بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٨٢م .

* فوات الوفيات لمحمد بن شاكر الكتبي ، تحقيق إحسا عباس ، ط: دار صادر ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٧٣م .

* القاموس المحيط لمجد الدين الفيروزآبادي تحقيق : مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثامنة ٢٠٠٥م .

* قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان للقلقشندي ، تحقيق إبراهيم الإبياري ، الناشر : دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٢م .

* كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة ، نشر : مكتبة المثنى ، بغداد .

* لسان العرب لابن منظور ، ط : دار صادر ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٤١٥هـ

* لسان الميزان لابن حجر العسقلاني ، تحقيق دائرة المعارف بالهند ، ط : مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت الطبعة الثانية ١٩٧١م .

* اللمحة في شرح الملحة لمحمد بن الحسن الصايغ ، تحقيق : إبراهيم سالم الصالحي ، الناشر : الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، الطبعة الأولى ٢٠٠٤م .

* المحكم والمحيط الأعظم لابن سيدة ، تحقيق عبد الحميد هنداوي ، ط : دار الكتب العلمية بيروت ، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م .

* مختار الصحاح ، لمحمد بن أبي بكر الرازي ، تحقيق يوسف الشيخ محمد ، الناشر : المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، الطبعة الخامسة ١٩٩٩م .

* المستدرك للحاكم ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ، ط : دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩٠م.

* مسند الإمام أحمد تحقيق شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد ، ط : مؤسسة الرسالة، بيروت ، الطبعة الأولى ٢٠٠١م .

* المصباح المنير لأحمد بن علي الفيومي ، الناشر : المكتبة العلمية ، بيروت .

* معجم الأدباء لياقوت الحموي ، تحقيق إحسان عباس ، ط : دار الغرب الإسلامي بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩٣ م .

* معجم البلدان ، ياقوت بن عبد الله الحموي ، ط : دار صادر ، بيروت الطبعة الثانية ١٩٩٥م

* معجم الشعراء للمرزباني ط : دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٨٢م

* المعجم الكبير للطبراني ، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ، الناشر : مكتبة ابن تيمية ، القاهرة الطبعة الثانية .

* معجم المؤلفين ، عمر رضا كحالة ، الناشر : دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

* معجم المطبوعات يوسف سركيس ط : مطبعة سركيس ، مصر ١٩٢٨م .

* ميزان الاعتدال لشمس الدين الذهبي ، تحقيق محمد على البجاوي ، الناشر دار المعرفة ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٦٣م

* النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهر لابن تغرى بردى ، الناشر : وزارة الثقافة ، مصر .

* نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب للقلقشندي تحقيق إبراهيم الإبياري ، ط : دار الكتاب اللبنانيين ، الطبعة الثانية ١٩٨٠ م .

* النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير الجزري ، تحقيق طاهر أحمد الزاوي و محمود محمد الطناحي، الناشر: المكتبة العلمية، بيروت ١٩٧٩ م

* هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين ، إسماعيل بن محمد البابانى البغدادي ط : دار إحياء التراث العربي بيروت – لبنان .

* الوافي بالوفيات للصفدي ، تحقيق أحمد الأرنؤوط ، ط : دار إحياء التراث ، بيروت ٢٠٠٠م

* وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، لأحمد بن خلكان ، تحقيق : إحسان عباس، ط : دار صادر بيروت .

فهرس الموضوعات

م	الموضـــــوع	رقم الصفحة
١	المقدمة	١٧١٦
٢	إسلام كعب	١٧١٧
٣	وصف المخطوطتين	١٧١٩
٤	ترجمة المصنف	١٧٢٢
٥	اسمه ونسبه وكنيته	١٧٢٢
٦	نشأته وحياته	١٧٢٣
٧	أخلاقه	١٧٢٤
٨	مؤلفاته	١٧٢٤
٩	شيوخه	١٧٢٥
١٠	تلاميذه	١٧٢٦
١١	وفاته	١٧٢٦
١٢	مقدمة النسخة	١٧٢٧
١٣	مقدمة في بيان ترتيب هذه القصيدة وأبياتها التي نسجت عليها	١٧٣٤
١٤	فهرس المصادر	١٨٥٨
١٥	فهرس الموضوعات	١٨٦٤

تم بحمد الله